الجزء الثانى

المقاومة الإفريقية ضد الغزو

- تمهيد.
- الخلفية التاريخية لإفريقيا الغربية:

١ـ الاسلام.

٢ـ الطرق الصوفية.

- الفصل الأول:

أولًا: السودان الغربى.

ثانيًا: السودان الاوسط.

- الفصل الثانى: المقاومة فى السودان الغربى والأوسط.
- الفصل الثالث: السودان الشرقى ـ سودان وادى النيل.

المقاومة الوطنية والثورة المهدية.

- الفصل الرابع: دول الساحل وممالك الغابات الإستوائية.

مقارمة الممالك الزنجية ضد الغزو.

تمهيد

هذا الجزء الثانى من الكتاب يركز على المقاومة الإفريقية ضد المستعمرين وكيف قاومت الشعوب الإفريقية غزواتهم من أجل الاحتفاظ بأرضهم وسيادتهم، ثاروا وتمردوا وحاربوا وقتلوا وأبيدو ومحيت قبائل وتغيرت الخريطة البشرية وهجِّرت شعوب قسرًا ودمرت حضارات، ولكن لم تُسجل هذه المقاومة عن عمد وتجاهل معًا.

إن إفريقيا قبل أن يغتصبها ويلتهمها الاستعمار لم يكن أهلها وزعاماتهم كما وصفهم السياسى البريطانى الشهير«ونستون تشرشل» فى كتابه «حرب النهر»: «إن الإفريقين عقولهم بسيطة شرسون يعيشون عيشة إنسان ما قبل التاريخ يتزوجون ويموتون وأقصى طموحهم هو إشباع رغباتهم الجسدية، يعيشون أجواء تملؤها الأشباح والإيمان بقوة السحر وعبادات الإسلام، يحملون فضائل بربرية جهلاء وجهلهم مصدر براءتهم، تاريخهم جميعًا هو خليط من الشقاء وأسطورة من البؤس».

لم تكن إفريقيا ابدًا عندما دنسها الاستعمار مثلما وصفها البريطانى الشهير، أقوام بسطاء سذج هللوا بالمستعمرين وباعوا أرضهم من أجل حفنة من الخرز الملون وكأس نبيذ، ووقعوا على معاهدات ساذجة كالتى تنص«أن تبقى هذه المعاهدات سارية إلى أن يبيد التراب ويشيب الغراب، كما يشيعه الغرب عنهم.

لنسترجع وصف أحد ملوكها لوبنقولا ملك قبائل الماتا بيلى (زيمبابوى) لأحد المبشرين كيف استعمرت مملكته عام ١٨٨٩ قال« أرأيت كيف تقبض الحرباء على الذبابة؟ إنها تزحف خلفها حتى إذا اقتربت منها كفت عن الزحف والتنفس فترة ثم تستأنف زحفها بطيئًا تقدم رجلًا أولًا وأخرى بعد حين وعندما تكاد تلامس الذبابة تنقض عليها بلسانها وتختفى الذبابة.. إن إنجلترا هى الحرباء وأنا الذبابة». إن هذا الفهم والتلخيص المذهل لأساليب الاستعمار ينم

عن ذكاء ووعى وإدراك كامل يدحض أكاذيب أن الإفريقين كانوا من الهمج الشرسون بلا عقول يأكلون لحم البشر، وهى الأكاذيب التى روجها المستعمرون لكى يشعروا الإفريقى بالخجل من ماضيه ويبرروا سرقتهم له.

إفريقيا قبل أن يطأها الاستعمار بقرون كانت قارة ثرية بحضارات عظيمة وزعامات رائعة، قامت فيها ممالك كبيرة وروابط حضارية ومسالك تصل أطرافها بعضها ببعض، وعلاقات تجارية بالعالم الخارجى تمتد حتى الصين، ولكن لم يشهد المستعمرون بشىء من هذا ولزموا الصمت وأصروا على ازدرائهم ونظرتهم الدونية للإفريقيين.

إن كتب التاريخ مليئة بالأحداث والوقائع ولكن نادرًا ماتشير إلى المقاومة الإفريقية ونادرًا ما نجد أبحاثًا تبين هذا الجانب الهام، والسبب أن اغلب تاريخ إفريقيا كتب من منظور استعمارى وقليل جدًّا ما كتبه إفريقيون بأقلامهم، وحتى ما كتب فيها استمدت هذه الأقلام معارفها ومصادرها من الكتابات الغربية. إن التاريخ الإفريقى لم يكتب بعد؛ لذلك طمست المواجهات الصامدة ضد المستعمرين ومحيت انتفاضات وحروب دامية، وأهيل النسيان على بطولات وشخصيات عظيمة دافعت عن استقلال أرضها حتى الموت.

إن القارة الإفريقية من الاتساع بما يصعب معه حصر تاريخ حركات المقاومة جميعها. لذلك آثرت أن أحصر بحثى فى المنطقة التى تشمل شمال خط الاستواء الممتدة من المحيط الأطلسى غربًا إلى البحر الأحمر شرقًا ، ليس لأن هذه المنطقة كانت مقاومتها أكثر فاعلية من غيرها فى بقاع أخرى أفريقية ، ولا لانها تميزت بكتابات أوفى، وليس لان شعوبها كانوا اكثر وعيًا وإحساسًا بضياع سيادتهم على أراضيهم، وإنما لأنها أقرب إلينا جغرافيًا وتاريخيًا، وهذا لا يقلل من كفاح شعوب إفريقيا جنوب خط الاستواء ومقاومتهم الفذة وثوراتهم ضد حجافل البرابرة المستعمرين، ولعل ثورة الهيريرو[1] فى جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا) فى أواخر القرن التاسع عشر التى كبدت الألمان خسائر فى الأرواح بلغت خمسة آلاف جندى ومستوطن ألمانى ونفقة تبلغ ١٥ مليون جنيه استرلينى خير شاهد على ذلك.

لم تكن الحرب المأساوية التى شنها المستعمرون الألمان على شعب الهيريرو والهدف منها إخضاع الأهالى فقط بل إبادتهم إبادة كاملة، وأدت ثورتهم التى عرفت بانتفاضة الهيريرو ضد الحكم الألمانى إلى حرب ضروس استمرت أربع سنوات صار بعدها الهيريرو الذين كانوا يبلغون ٨٠ ألفًا من الأهالى الأشداء لا يزيد عددهم عن ١٥ ألف من البشر المشردين.

(١) العبودية فى إفريقيا ـ المرجع السابق ـ ص١٠٠.

كان من أسباب ثورة الهيريرو هو احتلال الألمان لأراضيهم، والوسائل الوحشية التى مارس بها الغزاة سيطرتهم، فقد كان قرار احتلال جنوب غرب إفريقيا يعنى لألمانيا شيئًا واحدًا هو أن تقوم القبائل بتسليم الأرض التى كانت يرعى فيها أصحاب الأرض ماشيتهم ليتاح للرجل الأبيض امتلاك الأرض والماشية، وأيضًا الحصول على الماس الذى اكتشف بكميات وفيرة على سطح تربتها الرملية.

استبد الحكم الألمانى بالأهالى الضعفاء واستولى على ماشيتهم وأرضهم التى كانوا يتجولون فى أنحائها وعيون المياه التى كانوا يستخدمونها. وأدت مصادرة السلطة الألمانية لعدد كبير من الماشية إلى غضب الهيريرو ورغبة جامحة فى القتال. يصف ذلك الكتاب الأزرق الذى أصدرته الحكومة البريطانية عن فظائع الاحتلال الألمانى ضد الإفريقين بعنوان «اتحاد جنوب إفريقيا تقرير عن أهالى جنوب غرب إفريقيا وتعامل الألمان معهم». وقد اصدرت بريطانيا هذا الكتاب بعد الحرب العالمية الأولى. لم يكن اصداره عملًا شريفًا منزهًا من جانب بريطانيا لإظهار الحق وإنما لتبرير انتزاع هذه المنطقة من الألمان ليأخذوها هم ويحلوا محلهم، كان هدفهم هو اقتلاع جذور الاستعمار الألمانى وتثبيت الوجود البريطانى. يكشف الكتاب الفظائع التى ارتكبت وأمر الإبادة الذى أصدرته الإدارة الألمانية:« يحتم قتل كل رجل وكل امرأة وكل طفل من الهيريرو». ويحوى الكتاب أوصافًا تفصيلية وصورًا فوتوغرافية عن قتل المساجين من الجرحى وغير الجرحى ومن الرجال والأطفال الصغار والنساء، وحتى من استسلم منهم وهم فى الرمق الأخير كان الجند الألمان يضربونهم بالسياط حتى الموت جزاء لهم على مقاومتهم، ومن استطاع الهرب أبادتهم الصحراء إذ من نجا من أبناء القبيلة هاموا فى الصحارى وهلكوا من الجوع والعطش، وذلك بعد أن فقدوا أرضهم وقطعانهم وحريتهم وحياتهم العائلية وتمزقت وحدتهم القبلية.

يصف الكتاب مشهد إعدام اثنين من زعماء الهيريرو طالبوا باسترداد أرضهم «بأنهما حُملًا حملًا من عربة النقل وبكبرياء وبرأس مرفوعة مشيا نحو الشجرة التى ربطا فيها وبدون تغطية عيونهما أطلقت النار عليهما ودوت طلقات البنادق فى وقت واحد عبر الجبال المجاورة كأنها الرعد وانتهت حياة المتمردين».

أشعل هذا الحادث الثورة فى النفوس، وبدأت الحرب. كان جميع زعماء الهيريرو فى ميدان القتال يحيط بهم زوجاتهم وأطفالهم ومواشيهم مما أعاق حركة قتالهم؛ فى حين استدعت قوة إضافية من القوات الألمانية العسكرية وصدرت لها الأوامر أن يضرب كل هيريرو بالرصاص

سواء كان معه سلاح ام لم يكن، وسواء كانت لديه ماشية أو لم تكن، وأن لا يقبض على النساء والأطفال ولكن يبعدون إلى الصحراء حيث يموتون جوعًا وعطشًا أو يرمون بالرصاص. ولما كانت بنادق الألمان سريعة الطلقات فقد أجهضت الثورة وولت الجماعة كلها الأدبار إلى المناطق الجبلية النائية وهى أراضى رملية لا ماء فيها. وهكذا حُكم على الهيريرو بالموت وتبعثروا بلا حول ولا قوة وقد تحطمت أطرافهم وخارت قواهم وصار بعضهم جثثًا هامدة.

لقد أشرت إلى ثورة الهيريرو كمثال لأثبت أن إفريقيا كلها شمالها وجنوبها شرقها وغربها كانت طوال القرن التاسع عشر تنتفض بالثورات ضد المستعمرين.

* * *

إن واحدًا من الحقائق البارزة عن الدول الإفريقية القديمة هو أنهم لم يغزوا قط من خارج القارة، وإن كان حدث ذلك فقد كان من النادر جدًّا. لقد قاوموا الغزو وبقوا بعيدين عن أن تنتهك أراضيهم. كان فقط على طول الساحل يمكن للمسلحين الأوروبيين أن يكسبوا موضع قدم ولكن أخفقوا أن يكسبوا المزيد، حتى الدول العربية الموجودة فى شمال إفريقيا كان حظها قليلًا فى غزواتها البرية إلى الجنوب وقد فشلوا فى النهاية وأجبروا على الرحيل.

إن كتاب المرحلة الاستعمارية يميلون إلى تفسير هذه الحقيقة الخاصة بنجاح المقاومة الإفريقية بإرجاعها إلى المناخ والناموس، وفعلًا كانت الملاريا والشمس كانا مما يثبط عزائم الغزو الأجنبى، ومع ذلك فإن التقارير المبكرة تشير إلى أسباب أخرى وحصاتات أخرى وجدت ضد الغزو وهى قوة الجيوش الإفريقية وأن العنصر العسكرى كان بين وقت وآخر يثبت أنه العنصر الحاسم[1].

كان اهتمام الأوروبيين الأوائل مقصورًا على المناطق الساحلية، ولم يتوغلوا فى الداخل إذ كان هدفهم التجارة لذلك اكتفوا بالمناطق الساحلية، واعتمدوا على الحكام ورؤساء القبائل المحليين لتزويدهم بمنتجات المناطق الداخلية، كانت سياسة الأوروبيين تنحصر فى بناء قلعة أو حصن ساحلى. وقد أدرك الإفريقيون منذ اللحظة الأولى أخطار السماح للأجانب بامتلاك مكان حصين، فلم يسمح الرؤساء الإفريقيون للتجار الأجانب ببناء القلاع بل إنهم حينما سمحوا بها كما فى حالة قلعة المينا (على الساحل الغربى الإفريقى) التى كانت مكانًا لإقامة العبيد المقتنصين إلى حين ترحيلهم إلى الأمريكات وأوروبا، ادعى الإفريقيون السيادة عليها

(١) The African Slave Trate _ Basil Davidson P27

وطالبوا أن تكون الموانى مفتوحة وبأن يكون باستطاعة اى شخص زيارتها. كما لم يكن يسمح للأوروبيين بالقيام بغارات لاقتناص العبيد وإنما كانوا يستطيعون شراءهم فقط حيث كانت السلطة فى يد دول الساحل. ومع إدخال الأسلحة الأوربية وما جاءفى أعقاب التجارة من رخاء مادى نمت قوة الدول الساحلية التى كانت تعتمد على التجارة وتوريد العبيد، لذلك لم يستطع الأوروبيون مد سلطاتهم فى الداخل.

إذن لم يكن الزنوج الذين واجههم الأوروربيون همجًا أو يعيشون فى أحوال بدائية بل كانوا تجارًا ممتازين ولديهم دول حسنة التنظيم ومدن مسورة فيها حكام وملوك أقوياء حتى صغار رؤساء القبائل كانت لديهم رغبة كاملة فى استخدام القوة ضد الأوروبيين، وهذا يناقض الفكرة التاريخية القائلة بأنه قبل القرن التاسع عشر كان الأوروبيون فى غرب إفريقيا يعتبرون سادة وبأن الإفريقين يرهبونهم.

إن النظرة الأوروبية فى التاريخ هى من روجت بأن الإفريقين اعتبروا مجىء المستعمرين نعمة وخلاصًا لهم من الحروب الداخلية بينهم، ومن طغيان القبائل المجاورة بعضهم ببعض، ووصفت غير المقاومين بأنهم محبون للسلام وكل من قاوم بأنه متعطش للدماء.

كان المستعمرون على غير دراية بتفاصيل الأوضاع فى إفريقيا وكانوا ينتهجون استراتيجية الزحف والتقدم بشكل عشوائى وغير منسق فاصطدموا بالعديد من حركات المقاومة والتمرد والثورات وحروب العصابات. وما إن انتصروا حتى حاولوا أن يبينوا أن معظم الإفريقين تقبلوا «السلام الاستعمارى» شاكرين، وتم تجاهل وقائع المقاومة الإفريقية الباسلة. وبالرغم من هزيمة الإفريقين فإن انتصار أوروبا لا يعنى أن المقاومة الإفريقية كانت هزيلة فى ذلك الوقت، فالمقاومة الإفريقية أثبتت أن الإفريقين لم يتقبلوا عملية الغزو الأوروبى فى هدوء ودعة، وأن مقاومتهم لم تكن يائسة ولا رعناء بل كانت رشيدة ومحددة، وأن حركات المقاومة هذه لم تذهب سدى وأتت بنتائج هامة وقتها ولم تزل لها أصداء حتى اليوم.

لقد قاومت المجتمعات الإفريقية بكل أشكالها تقريبًا، والشعوب غير المنظمة مركزيًا تمتعت بنفس قدرة الشعوب الأخرى المنظمة مركزيًا على المقاومة العتيدة ضد البيض. ولكن شدة المقاومة كانت تختلف من منطقة إلى أخرى، فالمقاومة المسلحة فى روديسيا الشمالية (زامبيا) مثلًا لا تقارن فى اتساعها ولا فى مدتها بالمقاومة التى قامت فى روديسيا الجنوبية (زيمبابوى) ولا بمقارنة وادى الزمبيزى ضد البرتغاليين[1].

(١) تاريخ إفريقيا العام ص٦٥ ـ ٦٧.

كما أن الصراعات بين حكام الدول الإفريقية جعلت الطبقة الحاكمة منعزلة وفى حالة انفصال عن الشعب لأن نتائج الحروب الأهلية لم تكن تؤدى إلى تغيير فى النظام أو تغيير كيفى فى مكانه، وظروف الناس ككل لم تكن نتيجتها أكثر من تغيير طبقة حاكمة مكان أخرى جديدة، وهذا أحدث عزلة بين الحاكم والمحكومين، لذلك ينبغى تفسير هزيمة المقاومة الإفريقية أمام الغزو الأوروبى ليس فقط من منطق ضعف التقنية للشعوب الإفريقية ولكن أيضًا من منطق الضعف الفطرى للتكوينات الاجتماعية الإفريقية خلال تلك الفترة[1].

وقبل الحديث عن مقاومة الشعوب الإفريقية لغزاتهم لا بد من الإشارة إلى الممالك الإفريقية التى كانت قائمة قبل قدوم المستعمرين، ولكى يسهل فهم الموضوع قسمت القارة إلى عدة مناطق: غرب إفريقيا، شرق إفريقيا، وسط إفريقيا، جنوب إفريقيا إذ تختلف ظروف وآليات المقاومة فى كل منطقة عن الأخرى.

ومنطقة مجال البحث فى هذا الفصل هى شمال خط الاستواء وهى الحزام الممتد من المحيط الأطلسى حتى البحر الأحمر أو ما يطلق عليه السودان الكبير وهو ينقسم إلى ثلاث مناطق: السودان الغربى أو إفريقيا الغربية والسودان الأوسط والسودان الشرقى سودان وادى النيل الذى يمتد إلى الشرق الإفريقى حتى البحر الأحمر.

*****

(١) السياسة والحكم فى إفريقيا الجزء الأول ـ المشروع القومى للترجمة ـ المجلس الأعلى للثقافة ص٥٧.

- **الخلفية التاريخية لإفريقيا الغربية.**
- **الإسلام.**
- **الطرق الصوفية.**

الخلفية التاريخية لغرب إفريقيا

المقصود بمنطقة غرب إفريقيا ليس المعنى الجغرافى للمنطقة التى تمتد من سبتة المغربية فى الشمال حتى الكاب فى جنوب إفريقيا، فالمغرب والصحراء يعتبران قسماً من إفريقيا الشمالية، كما أن أنجولا وناميبيا يشكلان قسماً من إفريقيا الجنوبية، وتعد زائير والجابون والكاميرون جزءًا من إفريقيا الوسطى، يبقى ما أقصده بغرب إفريقيا مجال البحث هى مناطق السافانا التى تمتد حتى مشارف الشمال الإفريقى وجنوبًا إلى ساحل المحيط، أى المنطقة التى تضم حاليًا خمسة عشرة دولة مستقلة: موريتانيا والسنغال وجامبيا ومالى وغينيا بيساو والنيجر وساحل العاج(كوت ديفوار) وبوركينا فاسو(فولتا العليا) وبنين وتوجو ونيجيريا وغانا وسيراليون وليبيريا.

قبل أن تقسم هذه المنطقة إلى مستعمرات ومحميات كان يشار إليها بعبارة دول الساحل ودول ما وراء الساحل، وقد منح النهران الكبيران اللذان يجريان فيها نهر النيجر ونهر السنغال بعض الوحدة والتماسك لهذه الأراضى، وأيضًا جعلًا أكبر قوتين استعماريتين أوروبيتين تتبعان مجرى هذين النهرين للولوج إلى إفريقيا فكان الفرنسيون يتبعون نهر السنغال والإنجليز نهر النيجر.

وتاريخ إفريقيا الغربية فى العصور الوسطى وحتى نهاية القرن التاسع عشر كانت تتحكم فيه ظاهرة الهجرات أو الغارات المتصلة لبعض قبائل المغرب العربى عند أطراف الصحراء وطرقها المستمر للوطن الزنجى فى الجنوب؛ هذا فضلًا عن الاتصال التجارى الحتمى الذى كان يتم بين المغرب العربى فى الشمال الإفريقى وبين أسواق إفريقيا، هذه القبائل المهاجرة كان ينتهى أمرهم بأن يفرضوا نفوذهم بالقوة على طوائف مسالمة من الزنوج المستقرين ثم ينتشر نفوذهم انتشارًا سريعًا فى إقليم السافانا المكشوف وتكتفى بإخضاع الشعوب الزنجية

بقوة السلاح وتفرض ضريبة عليهم ثم يتم الاختلاط التدريجى بين الغالب والمغلوب عن طريق التزاوج وتنشأ طبقة جديدة من المولدين تغتصب الحكم وتقيم الإمبراطوريات والممالك الكبيرة التى شيدت فى غرب إفريقيا[1].

١ـ انتشار الإسلام

كان انتصار الإسلام المبكر فى الشمال الإفريقى وكسبه الصحراء وامتداده إلى منطقة السافانا وأجزاء واسعة من شريط الغابات قد أحدث ثورة تاريخية فى هذا الفضاء الإفريقى وسرعان ما تحول من كونه ـ فى البداية ـ ديانه ملوكية إلى ديانة شعبية، ومن دعوة دينية إلى سلطة حاكمة أى من دين إلى دولة، ومن ديانة مركزية فى المدن إلى عقيدة تنتشر فى الريف. وقد حملت لواء نشره شعوب متعددة، فبعد المور(الموريتانيون) فى الصحراء نهض بالدعوة التكرور ثم السوننكة فالفلانى والماندنجو، وبعد ذلك الكانمبو والكانورى ثم الديولا والهوسا والولوف. وتغيرت حواضره الإسلامية من كومبى صالح فى غانا إلى فوتا فى السنغال إلى نيانى فى مالى ونجمى فى كانم وبرنو ثم جاو فى صنغى ومن بعدهم سكوتو وحمد الله. ولم تكن حواضر هذه الدول تأتى واحدة تلو الاخرى على نحو آلى، ولكنها كانت نتاجًا لحركة القوى المتنافسة فى الإقليم تحت مظلة الإسلام[2].

ومن الصعب تحديد متى بدأ الإسلام ينتشر فى غرب إفريقيا. تذكر بعض المصادر أن تجارًا من شمال إفريقيا والمغرب ومصر كانوا يترددون على الأسواق الرئيسية فى غرب إفريقيا، ومن الطبيعى أن يكون بدايات الاسلام انتقل إلى المنطقة عن طريق هؤلاء.

هناك ثلاثة احتمالات لدخول الاسلام غرب إفريقيا

الاحتمال الأول على يد عقبة بن نافع ٦٦٦ حين توغل فى الصحراء الكبرى حتى وصل إلى كوار Kawar الواقعة فى الشمال الشرقى لجمهورية النيجر.

الاحتمال الثانى عن طريق التجار حيث كان للعرب علاقات تجارية مع سكان السودان الغربى قبل ظهور الإسلام، ثم استقر بعضهم وكان لهذا الاستقرار اسهام فى نشر الاسلام إذ كانوا هم الوسطاء فى حركة التجارة بين بلاد غرب إفريقيا والبلدان الأخرى. وكانت هناك عدة طرق تربط غرب إفريقيا بشمالها وهى طريق الواحات من بلاد كانم إلى بلاد السودان

(١) الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا د.حسن أحمد محمود ـ دار النهضة العربية ص٢١٩.
(٢) الإسلام وتداخل الثقافات فى السنغال (جامعة إفريقيا العالمية) د.مهدى ساتى ص٣٦.

الغربى، وطريق الصحراء من مصر إلى ليبيا إلى أغاديس فى النيجر حيث كانت مركزًا تجاريًا كبيرًا وموضع تقاطع الطرق التجارية بين شمال إفريقيا وبحيرة تشاد، وطريق فى المغرب من سلجمانة إلى أودغشت ثم نهر النيجر.

والاحتمال الثالث على يد المرابطين ١٠٧٦ بعد إسقاطهم مملكة غانا القديمة، وقد أسهم هؤلاء إسهامًا فعالًا فى نشر الإسلام ودفع حركة المد الإسلامى إلى مساحات واسعة فى السودان الغربى[1].

ويمكن تقسيم توغل النفوذ الاسلامى إلى غرب إفريقيا وأواسط السودان فى ثلاث مراحل، الأولى يغلب عليها الاحتكاك السلمى وكان التجار العرب والبربر دعامته، والمرحلة الثانية يغلب عليها جهاد المرابطين الذين أعطوا النفوذ الإسلامى بعدًا اقتصاديًا وثقافيًا وسندًا سياسيًا، وتجمع المرحلة الثالثة بين السلم والحرب، وفى هذه المرحلة انتقلت الزعامة الدينية والقيادة السياسية والاقتصادية والريادة الثقافية إلى السكان الوطنيين من السود بعد أن تشبعوا بروح الإسلام، واقترنت المرحلة الأخيرة أيضًا بقيام عدد من الممالك الإسلامية السودانية الزنجية تعاقبت على حكم المنطقة(مالى وصنغى وإمارات الهوسا)[2].

هذه الدول الإسلامية كان ملوكها من أهل البلاد الاصيلين ذوى الدم الزنجى الخالص أو الذين اختلطت دماؤهم بدماء البربر مثل دولة مالى التى أسسها شعب الماندنجو ودولة الصنغى(صنغاى) التى أسسها أسرة من شعب صنغى اختلطت أيضًا بدماء البربر[3].

وقد لعبت هذه الدول الإسلامية دورًا غطت به أجزاء واسعة فى بلاد غرب إفريقيا فى تاريخها الوسيط والحديث بدءًا بدولة غانا القديمة ثم مالى ثم صنغى وكانم وبرنو فى العصور الوسطى ودولة الشيخ عثمان بن فودى فى العصر الحديث، ثم لعبت دورًا عظيمًا فى تاريخ المنطقة فهذه الدول والممالك التى أنشأها الإفريقيون المسلمون ساهمت إسهامًا إيجابيًا فى نقل الحضارة والفكر الإسلامى داخل القارة فى هذا الجزء البعيد عن العالم الإسلامى ، ونقلت أصول ومعالم الحضارة الإسلامية إلى بلاد السودان الأوسط والغربى وهى تشمل مجموعة من

(١) مجله التواصل ـ المرجع السابق ـ ص١٢٦.
(٢) العرب والدائرة الإفريقية ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ سلسلة كتب المستقبل العربى العدد ٤٥ ص٣٩.
(٣) المؤتمر الدولى الإسلام فى إفريقيا (الكتاب الخامس ـ الإسلام فى بلاد التكرور فى غرب إفريقيا فى القرن التاسع عشر د. حندوقة إبراهيم فرج.

النظم والقوانين والمبادئ والتعاليم التى قام عليها الحكم الإسلامى فى تلك البلاد التى تمتد من تشاد شرقًا إلى السنغال على شاطئ المحيط الأطلسى غربًا[١].

وقد تسابقت الجماهير فى إفريقيا الغربية إلى اعتناق الدين الجديد تحت ضغوطات مختلفة، كانت فى الأساس حسب المفهوم الإفريقى زيادة القوى الروحية لحماية الشخص وأسرته فى نطاق واسع، وكان هؤلاء الأفارقة الوثنيون لا يجدون تناقضًا فى أن يؤمن المرء بالله إله الإسلام وهو فى نفس الوقت يؤمن بآلهة قومه، وأن يحرم محرمات الإسلام كالخمر والخنازير، وفى ذات الوقت يلتزم بمحرمات طوطمة كالامتناع عن أكل اليمامة بل حتى لمسها[٢].

وينبغى أن نشير إلى أن الصحراء الكبرى لم تكن حائلًا دون انتشار الإسلام وانتقال المؤثرات العربية إلى غرب إفريقيا. وقد حاول كثير من ملوك تلك البلاد أن يحاكوا المظاهر الإسلامية فى حياتهم ونظمهم، وظلت ممالك تلك البلاد ودولها مزدهرة منذ نشأتها فى القرن الحادى عشر حتى مطلع القرن العشرين[٣].

وينبغى أن نشير أيضًا إلى أن العلاقات الإسلامية العربية الإفريقية لم تؤد إلى ما أحدثته الثقافة الأوروبية عندما وصلت إفريقيا، ولم تظل العربية مغتربة مثلما ظلت الفرنسية والإنجليزية ومختلف اللغات الأوروبية فى مستعمراتها، بل إن الثقافة الإفريقية ظهرت بإنتاج العلماء والفقهاء فى كتب باللغة والأحرف العربية، وكتب التاريخ تزخر بها خزائن كانو وتمبكتو ولادو وزنجبار وغيرها من مراكز الثقافة الإفريقية. ومن الناحية السياسية فإن علاقة العرب والمسلمين بإفريقيا أو الحضور العربى فى إفريقيا لم يؤد إلى سقوط السياسة التقليدية فى المجتمعات الإفريقية كما حدث مع الاستعمار الأوروبى[٤].

مما تقدم نجد أن إفريقيا الغربية تعرضت منذ العصور الوسطى لظهور إسلامى أو فتوحات إسلامية أو حركات جهادية كما يطلق عليها أدى إلى ظهور عدة ممالك إسلامية

(١) المؤتمر الدولى الإسلام فى إفريقيا الكتاب الثامن بحث «بلاد غرب إفريقيا عبر التاريخ السر سيد أحمد العراقى ص٤٣.

(٢) المؤتمر الدولى ـ الاسلام فى إفريقيا المرجع السابق الكتاب الخامس/ موضوع فى إفريقيا نهاية أم بداية لمرحلة أخرى. الحسن سعيد جالو ص٣٣٨.

(٣) المرجع السابق ص٤٤.

(٤) سمنار العرب فى إفريقيا الجذور التاريخية والواقع المعاصر. دار الثقافة العربية/ المغتربون العرب فى إفريقيا حلمى شعراوى ص٣٠٩.

عاصرت بعضها البعض، وتبودلت بين هذه الممالك السيادة والشهرة والنفوذ. ولكن كتب على ممالك هذه المنطقة أن تتعرض لغزوين مدمرين رغم النضال البطولى الذى أبداه شعوبها. الغزو الأول هو الغزو المراكشى فى القرن السادس عشر الذى كان من أشد المحن على السودان الغربى (وسنعرض له فيما بعد)، والثانى هو الغزو الأوروبى فى القرن التاسع عشر.

وبالطبع هناك فرق بين الغزوين، فالمسلمون الذين جاءوا أصلًا من مراكش وانتقلوا إلى ربوع إفريقيا الغربية التحموا بشعوب المنطقة الذين دخلوا فى الإسلام إما عن اقتناع أو بالفتح وتزاوجوا منهم وأصبحوا من أهل البلاد، وهم من قاوموا وقادوا حركات الجهاد ضد الغزو الاستعمارى الأوروبى فى القرن التاسع عشر. أما الأوروبيون فقد كانوا غزاة أجانب جاءوا من أقاصى قارات أخرى ليحتلوا الأرض الإفريقية ويستعبدوا شعوبها بعدما سرقوا أبناءها ورحلّوهم إلى أمريكا وأوروبا.وظل هذا الاستنزاف البشرى الأوروبى لإفريقيا أربعة قرون، وعندما تشبعوا من الأيدى العاملة الإفريقية عندهم جاءوا إلى القارة مستعمرين مسلحين ليسرقوا مواردها الطبيعية. وأنا هنا لا أقارن بين الغزو باسم الإسلام أو الغزو باسم الاستعمار فالنتيجة أن شعوب المنطقة طحنت من الغزوين.

٢ـ الطرق الصوفية

لا يمكن فهم تاريخ المقاومة الإفريقية دون الإشارة إلى الطرق الصوفية ودورها فى مقاومة الغزو الأوروبى. إن الطرق الصوفية هى بلا شك ذات أصول وتوجهات دينية، ولكنها بلا مراء كانت سياسية فى وظيفتها، وقد كانت هذه الطرق الصوفية دائماً منظمات دفاعية تقف فى وجة الأخطار المحدقة من الخارج، وعندما كانت الدولة نفسها قوية كانت هذه الطرائق جزءًا من أجهزة الدولة، أما فى حالات ضعف الدولة نفسها وتفككها فإنها كانت تستقل بذاتها وتأخذ زمام المبادرة بيدها، وعلى هذا النسق نجد أنه عندما تخلت الأستانة(القسطنطينية) عن سيادتها صارت الطريقة السنوسية نواة مقاومة الإيطاليين فى برقة وفى صحراء ليبيا وعندما أصبحت الدولة المغربية عاجزة عن التصرف قامت الطريقة الكتانية باستنفار القوى المعادية للفرنسيين فى شنقيط وفى الشاوية. وكانت الطرق الصوفية ترفض كل اتصال بالسلطات الاستعمارية رغم كل المغريات، فإذا انتهى الامر باستسلامها لم يبق أمامها إلا سبيل واحد وهو أن تمارس رد الفعل إزاء السياسة الاستعمارية، وهذا ما كان يضفى عليها طابع القوة المستقلة[١].

(١) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ـ ص١٠٥.

انتشر الاسلام فى إفريقيا الغربية وصار حقيقة واقعية فى أغلب دولها بفضل رجال الطرق الصوفية والزوايا التى انشأها زعماء هذه الطرق التى كانت بمثابة ركائز لنشر الدعوة الإسلامية بين الشعوب الوثنية فى غرب إفريقيا. فقد قاومت هذه الحركات الصوفية التوسع الأوروبى فى القارة، وقاومت حركات التبشير المسيحى وكان لها الفضل الاكبر فى نشر الدين الإسلامى بين الوثنيين والدفاع عنهم أمام التيار الأوروبى الجارف فى القرن التاسع عشر[١].

كان التصوف فى القارة الإفريقية جزء أساسى من البنية الإسلامية ومحور الحركات الإصلاحية ودعامة جهادها. وكان السبب الرئيسى لانضمام الناس إليها هو أن الطرق ظهرت فى الوقت الذى تعرض فيه المجتمع التقليدى للتفكك والانهيار بسبب الغزو الأجنبى، وكان أكثر هذه الطرق شمولاً ثلاث طرق هى : الطريقة القادرية المنسوبة للشيخ عبد القادر الجيلانى، يليها الطريقة التيجانية المنسوبة لأحمد التيجانى، ثم الطريقة المريدية ومؤسسها أحمد بمبا.

١ـ الطريقة القادرية: مؤسسها عبد القادر الجيلانى ، تعد من أهم الطرق الصوفية فى غرب إفريقيا، انتقلت الطريقة من مراكش (المغرب) إلى جماعات الفولانى فى الهوسا (نيجريا) ثم إلى منطقة النيجر. وأيدت قبائل الطوارق هذه الحركة ثم امتدت تدريجيًا نحو حوض السنغال ثم إلى الجنوب الشرقى إلى بلاد الهوسا، ووصلت القادرية إلى إمبراطورية كانم عن طريق شمال إفريقيا[٢].

٢ـ الطريقة التيجانية: مؤسسها أحمد التيجانى، ويرجع انتشارها فى بلاد الهوسا وغرب إفريقيا إلى الحاج عمر الفوتى الذى ولد فى قرية على حدود السنغال ثم استقر فى فاس ومنها انتقلت الطريقة إلى موريتانيا، وحملها أبناؤه إلى بقية غرب إفريقيا حيث أعلن الجهاد ضد الوثنيين، وتصادف إعلانه الجهاد مواجهة القوات الفرنسية وملاحقتها له فاضطر أن يغير مجرى جهاده نحو النيجر الأوسط ومناطق البمبارا الوثنية. وقد انتشرت الطريقة التيجانية على نطاق واسع عبر السودان الغربى والأوسط من السنغال إلى برنو[٣].

٣ـ الطريقة المريدية: أسسها الشيخ أحمد بمبا عام ١٨٨٦ وانتشرت الحركة بين جماعات الولوف وقت أن كانت بلادهم تتعرض للاحتلال الفرنسى؛ لذا صار الشيخ بمبا فى نظر أعوانه

(١) د. عبد الرحمن بدوى ـ تاريخ التصوف الإسلامى ص١٢ نقلاً عن كتاب الطرق الصوفية فى إفريقيا ص٢٦.
(٢) الطرق الصوفية فى القارة الإفريقية د.عبد الله عبد الرازق إبراهيم ـ دار الثقافة والنشر والتوزيع ـ ص٣٨.
(٣) الطرق الصوفية فى القارة الإفريقية ـ المرجع السابق ـ ص٦٦.

ومريدية المخلص من الاستعمار الأجنبى. وتصدت الطريقة لمحاولات الفرنسيين فى السيطرة على السنغال، ووجد الناس فى هذه الطريقة الوسيلة الشرعية التى تجمعهم لمقاومة هذا التوسع الاستعمارى الذى أدى إلى تدمير نظم الحياه المعيشية عند الولوف، وانقسم مجتمع الولوف إلى وحدات متغيرة وتحول عدد من الحكام المحليين إلى جانب السلطة الفرنسية، ومن كان يقاوم من الوطنيين يتعرض للهزيمة أو الفناء أو الهجرة، فكان الانضمام إلى الطرق الصوفية خير بديل للنظام التقليدى الذى سحق فى أماكن كثيرة من القارة. وكانت الطريقة المريدية من أسهل الطرق الصوفية التى وجد فيها المريدون بديلاً عن مجتمع الولوف الذى دمرته الإدارة الفرنسية، ولقيت هذه الطريقة تأييدًا فى المناطق الريفية يفوق سكان الحضر والمدن؛ ذلك لأن الطريقة كانت أكثر تسامحًا فى الملاءمة بين التقاليد الإسلامية والعادات المحلية الوطنية. وبالرغم من أن الشيخ أحمد بمبا أعلن مرارًا أنه لا يرغب فى الدخول فى المسائل السياسية، وأنه يهتم فقط بالأمور الدينية إلا أن السلطات الفرنسية اعتبرت نشاطه تهديدًا مباشرًا لسيادتها على السنغال ونفته مرتين الأولى إلى الجابون مدة سبع سنوات والثانية فى موريتانيا.

لا جدال أن الطرق الصوفية قامت بدور كبير فى المجال السياسى والعسكرى، وتصدت بعنف للموجة الاستعمارية التى اجتاحت العالم الإسلامى والعربى، وكانت القارة الإفريقية بعد طرد المسلمين من الأندلس ١٤٩٢ هدفًا للدول المسيحية لضرب المسلمين ونشر الثقافة المسيحية فى القارة. ومن يطالع تاريخ إفريقيا يجد أن رجال الطرق الصوفية تصدوا للاستعمار والمستعمرين ووقفوا لهم بالمرصاد فى كل مرحلة من مراحل كشف القارة، وكلما اكتشف الأوروبيون منطقة من القارة وحاولوا نشر الديانة المسيحية بها كان المسلمون من رجال الطرق الصوفية ينافسونهم ويتصدون لمحاولاتهم، بل فى كثير من المناطق أغلق المسلمون الباب أمام التحركات المسيحية، وقاموا بدور كبير فى تحويل السكان الوثنيين إلى الدين الإسلامى، وأقاموا دويلات إسلامية تعلن الجهاد الإسلامى، وصارت القارة الإفريقية فى القرن التاسع عشر خلية عمل متصل من الجهاد فى مواجهة جحافل المستعمرين الأوروبيين ورجال التبشير الأوروبى، وتاريخ إفريقيا حافل بالبطولات الإسلامية.

ولكن بالرغم من الدور المشهود للطرق الصوفية فى المجال الثقافى والدينى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى فى القارة الإفريقية إلا أن هذه الطرق بسبب اختلاف مداركها وتعدد انتماءاتها لم تحاول تكوين جبهة ضد العدو الأجنبى، ووصل التنافس بينها إلى حد التعاون مع القوى الوثنية ضد حركات الجهاد الإسلامى الأخرى، وتحالف بعض رجال الصوفية مع

القوى الأجنبية حفاظًا على مكانته أمام منافسة الطرق الأخرى. وقد أضعف هذا التنافس فيما بينها جهودها أمام التيارات الاستعمارية الأوروبية[1].

وموجز القول أن التصوف فى القارة الإفريقية كان أساس البنية الإسلامية ومحور حركاتها الإصلاحية ودعامة الجهاد الإسلامى، وقاد زعماء ومشايخ الصوفية حركات مقاومة عنيدة ولكن جهود هؤلاء لم تجد ما تستحقه من صفوة المؤرخين ووصفوا ايمان هؤلاء بالغيبيات؛ هذه الغيبيات جعلتهم لا يعيشون الواقع ولا يقدرون حقيقة توازن القوى بين الجيوش الاستعمارية والمحاربين المحليين، وظلوا يتوقعون المعجزات التى ترد زحف الغزاة، وكانوا متفرقين غير متحدين يفتقدون الثقة فى بعضهم البعض مما جعلهم يرفضون قبول ما بدا أنه أمر محتوم.

والسؤال هل يمكن أن نعتبر أن هذه الحركات كانت بالية التفكير وغير مجدية، وأن استسلامها أمام قوة عسكرية جارفة استسلامًا حقيقيًا.. إن الأمانة تقتضى أن نعتبر هذه المقاومة المشتتة والمحلية شكلًا من الأشكال المبكرة للوطنية وبداية ظهور الروح القومية.

*****

(١) الطرق الصوفية ـ المرجع السابق ـ ص٢٢٥ـ٢٣٠.

الفصل الأول

أولًا: السودان الغربى

الممالك الإسلامية فى السودان الغربى:

١ـ مملكة غانا القديمة.

٢ـ سلطنة مالى.

٣ـ سلطنة صنغى.

٤ـ الغزو المراكشى.

ثانيًا: السودان الأوسط

١ـ مملكة كانم وبرنو.

٢ـ سلطنة البُلالة الإسلامية فى حوض بحيرة تشاد.

٣ـ بلاد الهوسا.

٤ـ دولة رابح.

أولًا: الممالك الاسلامية فى السودان الغربى

قامت الممالك الإسلامية فى غرب إفريقيا (السودان الغربى) بدور مشهود لا يمكن نكرانه أو تجاهله فى مقاومة المستعمرين الغربيين عندما غزوا القارة فى القرن التاسع عشر، وأقدم هذه الممالك مملكه غانا القديمة.

١ـ مملكة غانا القديمة (١٠٧٦ـ١٢٠٧م):

وهى غير غانا الحالية التى تقع على الساحل، وتعد أقدم ممالك إفريقيا الغربية شمال نطاق الغابات، قيل إنها كانت إمبراطورية خضع لها معظم بلاد السودان الغربى، مدى اتساعها ليس معروفًا بالضبط. يصفها د. إبراهيم طرخان فى كتابهِ «إمبراطورية غانا الإسلامية»[١]. إنها كانت صاحبة السيادة والنفوذ فى الأراضى الواقعة بين نهرِ النيجر والمحيط الأطلسى، وإنها امتدت من ناحية الشمال وخضعت لها غالبية القبائل الصحراوية وامتدت شرقًا إلى جنوب تمبكتو وجنوبًا بغرب أعالى السنغال وأعالى النيجر، وتقع أطلالها اليوم بقرب الحدود الموريتانية ضمن أراضى جمهورية مالى الحديثة.كان بها جيش كبير قواته مائتى ألف محارب، ٤٠ ألفًا منهم مسلحون بالأقواس والسهام، كانت مملكة صحراوية يستخرج منها الذهب لذلك كان رخاؤها رهنًا ببقاء طريق الصحراء مفتوحًا، ومع توالى الغزو العربى من شمال إفريقيا ظهر خطر اضطراب هذا الطريق، فعندما أحكم بنو أمية قبضتهم على مراكش قاموا بشن هجوم على المنطقة المسماة غانة، وكان هذا الهجوم أول حملة مراكشية ضد أحدى دول إفريقيا الغربية،ولم تكلل الحملة بنجاح[٢]. ومع تزايد قوة القبائل الصحراوية أطاحت بهذه الإمبراطورية وبالممالك المستقرة حولها.وفى القرن الحادى عشر تمكن المرابطون بقياده ابن ياسين(القادم من جزيرة فى نهر السنغال حيث أسس رباطًا) من إخضاعها، واستمرت

(١) إمبراطورية غانا الإسلامية د. إبراهيم طرخان ص٣٠.

(٢) الوثنية والإسلام تاريخ الإمبراطوريات الزنجية فى غرب إفريقيا (طبعة ثانية) كمادهو بانكار ترجمة فؤاد بليغ ص٨٠.

غانة تقاوم غزو المرابطين حتى سقطت عام ١٠٧٦م بعد حرب تواصلت دون انقطاع وبسقوط الحكومه الغانية الوثنية أصبح يؤرخ لها بغانة الإسلامية حتى اختفت من الوجود كقوة عظيمة وأخدت المقاطعات التابعة لها تستقل عنها واحدة تلو الأخرى.

٢ـ سلطنة مالى ١٢٠٠ ـ ١٤٩٦م

مالى من أعظم ممالك السودان الإسلامية أسسها شعب الماندنجو فى القرن الثالث عشر واشتهرت باسم بلاد التكرور، تقع جنوب المغرب متصلة غربًا بالمحيط الأطلسى وشرقًا ببلاد برنو وشمالًا بالصحراء وجنوبًا بالممالك الوثنية، اشتملت على خمس أقاليم كل منها كانت مملكة مستقل هى: ١ـ مالى واتخذت الإمبراطورية هذا الاسم،٢ـ صوصو إلى الغرب من إقليم مالى، ٣ـ بلاد غانه غرب اقليم صوصو وتجاور المحيط، ٤ـ بلاد كوكو شرق اقليم مالى، ٥ـ بلاد التكرور، وهكذا تجد أن مالى قامت فى قلب السودان وفى حوض النيجر وأصبحت غانه بعد ضعفها أحد اقاليم امبراطوريه مالى الإسلامية[١]. وجمهوريه مالى الحديثة هى جزء من دولة مالى الإسلامية التى كانت تعرف قبل استقلالها بإسم السودان الفرنسى لذلك عندما تظهر مالى فى التاريخ فإنما تظهر كجزء من غانة القديمة وكبلد وثنى اعتاد الشماليون الإغارة عليه.

لا يعرف إلا القليل عن نشأة مملكة مالى، وكل ما ذكر عنها أنه فى منتصف القرن الحادى عشر اعتنق ملوك الماندنجو الإسلام، ولكن أهل المملكة ظلوا على وثنيتهم. وفى القرن الرابع عشر فاقت شهرتها دولة غانة القديمة من حيث القوة والثراء والاتساع، وضمت داخل حدودها مناجم الذهب والملح وتحكمت فى طريق القوافل بين هذه المناجم شمالًا وجنوبًا[٢].

وبدون الدخول فى التفاصيل الكثيرة غير المؤكدة يعتبر سنديانا هو مؤسس مالى وإن اعتبر المؤرخون ابنه منسى موسى هو البطل العظيم الذى حرر مالى من سيطرة جيرانها وبخاصة شعب الصوصو، وكان منسى شديد التمسك بدينه الإسلامى شديد البذخ والسخاء. يقال إنه عندما ذهب إلى الحج عام ١٣٢٤م دخل مصر ومعه ثمانين حملًا من تبر الذهب زنة كل منها ثلاثمائة رطل، وحاشية تراوح عددها بين ستين ألفًا حسب تقدير المؤرخ السعدى

(١) الوثنية والاسلام ـ المرجع السابق ـ ص٨٧.
(٢) الموسوعة الإفريقية ـ تاريخ إفريقيا ـ المجلد الثانى ص١٧٧.

وعشرة آلاف حسب تقدير المقريزى. ومات منسى عام ١٣٣٧م ، وخلفه ابنه الذى لم يستمر حكمه سوى أربع سنوات ثم خلفه أحد إخوة منسى موسى الذى حكم تسع عشرة سنة، وفى عهده تمزقت الإمبراطورية من جراء الخلافات الداخلية، واندلعت حرب أهلية ثم استولى على السلطة مارى جاظه الذى كان رقًا ثم أصبح رئيسًا للرقيق وقائدًا للجيوش، وكان قائدًا قديرًا تمكن من أن يعيد نفوذ الإمبراطورية، وكان هذا آخر حاكم قوى لمالى، وظلت مالى بعده لمدة قرن آخر دولة قوية ولكن الاضطرابات وتمرد شعبى الموسى والصنغى أدى إلى إضعافها وفقدت مالى مقاطعتها الشرقية وقامت دولة الصنغى ١٣٧٥، ومع ذلك ظلت مالى إمبراطورية حربية كبرى فى الغرب ودولة حربية قوية قادرة على الصمود فى وجه الغزوات الأجنبيه.ثم قام حاكم الصنغى بمهاجمة مالى وعجزت مالى عن مقاومة النهب الذى تعرضت له حاضرتها تمبوكتو، وكانت تمبوكتو تأسست فى أواخر القرن الثانى عشر حاضرة الثقافة العربية فى غرب إفريقيا لا تقل عن القيروان أو فاس فى المغرب الأقصى وقرطبة فى الأندلس أو القاهرة فى مصر. وبسقوط تمبوكتو فى أيدى الطوارق انتهى وجود مالى كإمبراطورية بيد أنها استمرت تمارس السيادة كسلطة إمبراطورية على المناطق الغربيه،وإن كانت فقدت الروح العسكرية وبدأت الأقاليم الخاضعة لها تستقل الواحدة تلو الأخرى. وفى عام ١٤٨٠ استنجد ملوكها بالعثمانيين الذين كانوا قد استقروا فى المغرب وطلبوا حمايتهم، ثم استنجدوا بالبرتغاليين، ولكن لا العثمانيين ولا البرتغاليين أسعفوهم من سلاطين مملكة صنغى الذين توغلوا فى ديار مالى، وأصبحت فى القرن السابع عشر مجرد دولة صغيرة حتى ابتلعها الفرنسيون عام ١٨٩٨.

٣ ـ سلطنة صنغى الإسلامية ٧٧٧ ـ ١٠٠٠هـ/ ١٣٧٥ ـ ١٥٩١

قامت إمبراطورية صنغى الإسلامية بالتدريج منذ ١٣٧٥ على أنقاض البعض من إمبراطورية مالى، كانت جزءًا من سلطنة مالى حتى عام ١٣٧٥م عندما تحرك ملوك الصنغى منتهزين فرصة الضعف الذى أخذ يظهر فى دولة مالى واستردوا استقلالهم وأصبحت بلاد الصنغى من أوسع الدول التى قامت فى غرب إفريقيا ووحدت كل ما يعرف اليوم بغرب إفريقيا.

بدأت سلطنة صنغى دويلة صغيرة لا تختلف فى قيامها عن سلطنة مالى وغانة، فقد سبق أن تدفقت بعض قبائل مغربية فى حوالى منتصف القرن السابع الميلادى على الضفة اليسرى لنهر النيجر وسيطروا على الزراع من أهل صنغى، ورحب بهم هؤلاء الزراع ليحموهم من

الصيادين الذين كانوا يعتدون عليهم، وكونوا أسرة حاكمة استفادت من العلاقات التجارية مع غانه وتونس وبرقة ومصر. كانت هذه العلاقات التجارية ذات أثر كبير فى تحول ملوك صنغى إلى الإسلام فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى إبان الحركة الضخمة التى اضطلع بها المرابطون فى ذلك الوقت لنشر الإسلام فى غرب إفريقيا.

رأى ملوك الصنغى أن ينقلوا حاضرة ملكهم إلى جاو، وهى مدينة تقع على نهر النيجر كانت تعد من أفضل مدن السودان الغربى وأكبرها وأخصبها، وكانت جزءًا من سلطنة مالى حتى عام ١٣٧٥ حينما سيطروا عليها وتوسعوا أكثر حتى امتدت حدود بلادهم وشملت المسافة الواقعة إلى منحنى النيجر وجاورهم الطوارق من الشمال، ومن الغرب الماندنجو وهم جماعات وثنية من أهل السودان ، كما امتدت بلادهم شرقًا حتى اتصلت ببلاد كانم وبرنو وتشاد وشملت مدينه تمبكتو وخضعت لهم مملكه الموسى الوثنية، وتسرب نفوذهم إلى شمال نيجيريا.

ويعد أول ملوكها سنى على أو السنى على (١٤٦٤ـ١٤٩٢) من أعظم ملوك الصنغى ومؤسس إمبراطوريتها الإسلامية، واتسم عهده الذى استمر ٢٧ عامًا بالحروب المتواصلة التى أسفرت عن توسيع إمبراطوريته فى كل اتجاه من بلاد الماندنجو والفولانى ومعظم ممتلكات مالى الإسلامية حتى مواطن الطوارق، وبذلك فإن سنى على كوّن إمبراطورية صنغى الإسلامية.

كانت قوة الصنغى شديدة الوطأة على جارتها الدولة الزنجية دولة الموسى الذين ربما كانوا الشعب الوحيد الذى قارب أن يكوّن قومية فى غرب إفريقيا، كانوا شعبًا أكثر اتحادًا ويتمتع بتماسك تفتقر إليه الشعوب الأخرى فى غرب إفريقيا، وظلت هذه الدولة تمارس التهديد على دولة الصنغى حتى أن سنى على فكر فى شق قناه على إحدى مجارى النيجر ليوقف غارات الموسى، ولكن لم يخرج هذا المشروع إلى التنفيذ إذمات سنى على فجأة فى ظروف غامضة.

خلف سنى على أحد قواده اسكيا محمد(واسكيا تعنى لقب القاهر) الذى قاد حركة جهاد لتوسيع رقعة بلاده ونشر الإسلام بين الوثنيين من جيرانه الماندنجو والفولانى فى الغرب والطوارق والبربر فى الشمال وقبائل الموسى الزنجية فى الجنوب والهوسا فى الشرق ومدن كاتسينا وغوبير وكانووزنفر وزاريا، وقد خضعت له هذه المدن عام ١٥١٣، وكان خضوعها بداية ظهور الثقافة الإسلامية فى مدن كانو وكاتسينا كمراكز للثقافة الإسلامية فى هذا الجزء من شمال نيجيريا.

وبعد موت اسكيا محمد نشبت الصراعات بين ملوك الصنغى مما أضعف الدولة وطمع فيها سلاطين مراكش (المغرب) الذين كانوا يتطلعون إلى مناجم الملح فى تغازه والسيطرة على تجارة الدهب، وظل ملوك الصنغى يصدون سلاطين مراكش حتى عام ١٥٨٥ حينما انقسمت البلاد على نفسها فاستغل سلطان المغرب أحمد المنصور الذهبى هذا الظرف وسير جيشًا عام ١٥٩٠ وأستولى على العاصمة جاو. ولكن نصر المغرب لم يحقق أغراضه التى قاتل من أجلها وهو السيطرة على مناجم الذهب فى غرب إفريقيا لأن ثروة صنغى لم تكن نتيجة امتلاكها الذهب بقدر ما كانت نتيجة سيطرتها على تجارته القادمة من جنوب مملكة صنغى، وهى تجارة لا تزدهر إلا فى ظل الأمن والسلام الذى قضى عليه سلاطين مراكش الذين لم يستطيعوا أن يمدوا نفوذهم إلى ما وراء المدن الرئيسية. ولما أدرك السلاطين المغاربة ضعف المزايا التى عادت عليهم من وراء هذا الفتح الذى كلفهم الكثير كفوا عن إرسال الجند والمؤونة اللازمة لقواتهم هناك وتركوا هذه القوات تقرر مصيرها بنفسها فنشأت أسر محلية من الباشوات تدين بالتبعية الاسمية لسلطان مراكش وتعتمد على عنصر خليط من البربر وأهل البلاد.

هؤلاء الباشوات كان همهم منصرفًا إلى جمع المال وحمل الزعماء المحليين على دفع الإتاوة، وبالتدريج ضعفت قوة بقايا الجيش المغربى مما اضطر الباشوات أنفسهم إلى دفع الجزية إلى الحكام الوثنيين من ملوك البمبارا (جنوب حوض النيجر). وظل الأمر على هذا النحو حتى جاء الفرنسيون والتهموا المنطقة بأسرها وسموها إفريقيا الاستوائية الفرنسية[١].

الغزو المراكشى

كان الغزو المراكشى من أشد المحن على السودان الغربى، كان بداية النهاية لدول النيجر ومقدمة لانهيار القانون والنظام فيها بل واندثار نظام الدولة فى بلاد السودان الذى ظل قائمًا منذ تأسيس دولة غانة.

وتعد علاقه الشمال الإفريقى بالسودان الغربى الذى اشتهر بذهبه علاقات وثيقة وقديمة، وكان غزو هذه المنطقة منذ وقت طويل موضع تفكير حكام مراكش، ولكن كان عبور الصحراء يشكل أول العقبات، كما كانت تقديرات قوة إمبراطوريات السودان كبيرة بدرجة

(١) الموسوعة الإفريقية ـ المرجع السابق ـ ص١٨٢ـ ١٨٨ .

تكفى للتغلب على أية حملة تتمكن من عبور الصحراء. وإذا أخفقت الحملة كان معنى ذلك أن تقطع العلاقات التجارية مع السودان، ويتحول تدفق الذهب عبر مسالك أخرى.

لذلك كانت سياسة المراكشيين هى الإبقاء على الصحراء فى حالة اضطراب، وكانوا يوجهون البربر مثيرى الفتن إلى الاغارة على الصحراء فقد كانوا يقدرون أن خط عبور الصحراء يشكل حاجزًا لا يمكن التغلب عليه، وأن أرباح التجارة مع السودان تتدفق على خزائنهم دون غزو. ومن جهة الإفريقيين لم يكن الصنغى يتوقعون الغزو المراكشى وغامرهم احساس بأن الصحراء الكبرى يمكن أن تحمى ظهورهم مما اعطاهم شعورًا زائفًا بالامن فلم يتخذوا الاحتياطات اللازمة من قبيل تسميم آبار الطريق مثلًا.

وعندما تولى السلطان أحمد المنصور الملقب بالذهبى سلطانًا على مراكش ١٥٧٨ عقد العزم على غزو السودان للفوز بذهبه الكثير، وكانت فكرة غير موفقه من ذلك السلطان الطموح لأن بلاد السودان كانت تقوم فيها دولة الصنغى وهى دولة قويه وبها رجال أقوياء أشداء يعيشون فى صراع دائم مع الوثنيين فى حين أن المغرب الأقصى كان يجنى الثمرات من تجارته مع السودان دون مشقة. وكان على السلطان المنصور الذهبى أن يقدر أن حملة تعبر الصحراء وتقطع ألوف الكيلومترات فى الصحراء لا بد أن تكلف مالًا طائلًا ولا تعود بما يساوى ذلك العناء والتكلفة.

جهز السلطان حملة ١٥٨١ سارت فى فوضى شاملة وهلك فى رمال الصحراء من رجاله المئات، كان هدفها الأول مناجم الملح فى تغرة إذ كانت مصدرًا كبيرًا من مصادر الإيراد لسلطان الصنغى.وبعد خمسة أشهر من رحلة مهلكة فى الصحراء وصلت الحملة إلى بلاد الصنغى، ودارت معارك بين الطرفين ما بين انتصار وهزائم حتى دخل الجيش المراكشى عاصمتها جاو فوجدها خاوية وقد غادرها أهلها، وشعر رجالها بخيبة أمل كبيرة عندما علموا أن مناجم الذهب مازالت بعيدة جدًّا عنهم وأنهم لا بد أن يسيروا قدر ما ساروا فى أرض صحراوية حتى يدخلوا الغابة حيث مناجم الذهب.

يئس سلطان المغرب من بلاد السودان واكتفى بمقادير الذهب الكبيرة التى أرسلتها إليه الحملة الأولى، وترك أمر السودان للجند المغاربة فعاثوا فى البلاد فسادًا ودمروا مدينتى تمبكتو وجاو مركز حضارة الصنغى، وظهرت عصابات المأجورين التى أخذت فى تخريب القرى ونهبها، وكان ذلك أشد البلاء لعامة الشعب من محاربة الدول بعضها ببعض. وقد

اغتنى السلطان أحمد المنصور من وراء هذه المغامرة التى قضى فيها على دولة إسلامية مجيدة فى فجر عصر الاستعمار، وذلك بمقادير الذهب التى كان معظمها ليس من مناجم الذهب وإنما من نهب المدن ومصادرة أموال التجار والناس وأصبحت الثلاثمائة سنة التالية فى تاريخ السودان فترة ممالك سريعة الزوال وحروب مستمرة وغارات من جانب المراكشيين والطوارق، ولم يعرف السودان الغربى عند منحنى النيجر طعم السلم مرة أخرى حتى احتلها الفرنسيون فى القرن التاسع عشر[١].

كان غزو المراكشيين للسودان هو المقدمة لانهيار القانون والنظام فى بلاد السودان الذى ظل قائمًا منذ تأسيس دولة غانة، وكانت الفترة ما بين الغزو وبداية القرن التاسع عشر فترة فراغ كبيرة فى تاريخ هذه البلاد؛ فترة حاول فيها كل من الموسى والبمبرة والفولانى والطوارق والبربر الاستيلاء على العاصمة جاو، ومع ذلك لم تتوقف المقاومة الإفريقية على الإطلاق.

لم تتوقف المقاومة الإفريقية، وأبدى الصنغى مقاومة مشهودة، وعلى الرغم من أن النصر لم يكن حليفهم فإنهم لم يتيحوا للمراكشين فرصة لتدعيم قوتهم بل زادت من تصميمهم على النضال. وفى عام ١٥٩٣ أوقع الصنغى هزيمة بالمراكشيين، وكان للمراكشيين متاعبهم فى الأراضى التى سيطروا عليها، ولكنهم انتصروا مرة ثانية واستولوا على تمبكتو وأنزل المراكشيون بأهلها وعلمائها مظالم وإجراءات بالغة القسوة واستولوا على ثروات البلاد. على أن الإفادة الكبرى لمراكش هى أسر العدد الكبير من الزنوج الذين شكلوا منذ ذلك الوقت جزءًا هامًا من جيشها.

لم يكن بإستطاعة مراكش أن تحتفظ فى السودان بقوات تكفى لإقرار السلام فى منطقة الصنغى. وفى عام ١٦١١ زحف جيش الصنغى نحو الغرب وأخذ المراكشيين على غرة وأوقع بهم هزيمة، وبحلول عام ١٦٢٠ كان المراكشيون قد طفح بهم الكيل تمامًا من السودان.

وبالرغم من أن تمبكتو استمرت تحت حكم المراكشيين فإن نفوذ السلطان المراكشى صار موضع هزء وسخرية، وعمد الفولانى والطوارق والبمبارا إلى تخريب القرى ونهبها.

ولم يحاول المراكشيون التغلغل فى البلاد حتى عام ١٦٣٥ عندما هزموا الصنغى

(١) أطلس التاريخ الإسلامى/ الزهراء للإعلام العربى ص٣٧٦.

مرة أخرى، ومع ذلك بحلول عام ١٦٦٠ كان الحكم المراكشى قد انتهى حتى من الناحية الاسمية[١].

أدى الغزو المراكشى إلى انكماش دولة الصنغى ثم القضاء عليها، وظلت مراكش تحتفظ بنفوذها فى هذه البلاد ترسل منها الامدادات حتى أرهقتها، وأصبح هذا الاحتلال الذى لم يحقق أحلام المراكشيين أو أهدافهم عبئًا ثقيلًا حتى توفى السلطان منصور صاحب الفكرة ووئدت بوفاته فتخلى المراكشيون عن أحلامهم وتركوا السودان يواجه مصيره. وقد أساء الغزو المراكشى بما أعقبة من احتلال وما صاحبه من فوضى ليس إلى الناحية الاقتصادية فحسب بل أيضًا إلى الناحية الثقافية، فإحتلال المراكشيين لتمبكتو ولغيرها من المراكز الثقافية لا يكاد يختلف من حيث آثاره ونتائجه عن غزو المغول لبغداد[٢].

كما أتاح الغزو المراكشى فرصة تاريخية لسيادة الوثنية القديمة من جديد حيث تسبب هذا الغزو غير المبرر فى سقوط صنغى آخر أكبر الإمبراطوريات الإسلامية الكبرى فى العصور الوسطى إثر موقعة شارك فيها عدد من اليهود والمرتزقة المسيحيين، وكان من آثار هذا الغزو أن وقعت المجتمعات الإسلامية فى ظل السيادة الوثنية التى استعادت قوتها سريعًا، واختفى المسلمون فى المجتمعات التقليدية بثقافتهم التى فقدت الريادة بفقدانها السلطان السياسى، وتقلص النفوذ الإسلامى وهجر العلماء والمصلحون المنطقة وبهجرتهم تلاشت جهود التأصيل وأصبح المجال مفتوحًا للتخليط، وبذلك تم تحييد الإسلام وإفراغه من كل مقومات التحدى لنمط الحياة التقليدية وبدأ المسلمون يكيفون حياتهم على النمط السائد فى المجتمعات الزنجية.

وسعى الاستعمار إلى تطوير هذا الإسلام المشوب ببعض شوائب الوثنية الإفريقية، وعكف لتمكنه فى السنغال وسائر الغرب الإفريقى على العمل بصورة مباشرة وغير مباشرة، لذلك سيظل الخليط أو الاسلام الأسود كما يسميه الغرب صنيعه استعماريه، فعملت على اضعاف اللغه العربيه وصادرت المطبوعات العربية وفرضت حصارًا على حركة اتصال المسلمين فى تلك البلاد بإخوانهم فى مصر وشمال إفريقيا والحجاز، وبعد ذلك بدأت فى محاولات إكساب الممارسات الوثنية التخليطية وزنًا تاريخيًا باعتبارها إرثًا ينبغى الحفاظ عليه[٣].

(١) الوثنية والإسلام ـ المرجع السابق ـ ص١٧٦.
(٢) الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا ـ المرجع السابق ـ ص٣٨٠.
(٣) الإسلام وتداخل الثقافات فى السنغال/ جامعه إفريقيا العالمية. د. مهدى ساتى ص١٦٥ ـ ١٦٦.

ثانيًا: الممالك الإسلامية فى السودان الأوسط

١ - مملكة كانم وبرنو الاسلامية ١٠٨٦-١٨٤٦:

هذا ما كان من أمر السودان الغربى فى العصر الوسيط، أما بالنسبة للسودان الأوسط الذى يتكون من حوض بحيرة تشاد وما حولها من بلدان تمتد من نهر النيجر غربًا إلى دارفور فقد قامت فيه دول إسلامية كان أهمها وأعظمها سلطنة كانم وبرنو الإسلامية وكذلك سلطنة البلالة وإمارات الهوسا الإسلامية. وكانت منطقة تشاد مهد سلطنة كانم وبرنو التى قامت حول البحيرة مما جعلها مركزًا هامًا لالتقاء طرق القوافل المارة إلى أنحاء القارة.

إن دوله كانم وبرنو التاريخية لم يعد لها وجود فى العصر الحاضر، فقد تم تقسيمها فى عام ١٨٩٤بين إنجلترا وفرنسا وألمانيا فى غمرة التوغل الاستعمارى الأوروبى، وكان مهد هذه الإمبراطورية منطقة تشاد شرق ممالك الهوسا أى شمال شرق النيجر ونيجيريا. ومن الدول التى تقوم الآن على أنقاضها أو تضم أجزاء منها: ١ـ جمهوريه تشاد وقد شملت أغلب الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية وإقليم كانم بأكمله، ٢ـ جمهورية إفريقيا الوسطى التى تقع جنوب تشاد وتضم الأطراف الجنوبية من إمبراطورية البرنو، ٣ـ جمهورية النيجر وتضم أغلب الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من إمبراطورية البرنو، ٤ـ جمهورية نيجيريا وتضم البرنو الاصلية غرب تشاد، كما تضم جميع ممالك الهوسا، ٥ـ جمهورية الكمرون وتضم الاجزاء الجنوبية والجنوبية الغربية من برنو[١].

ضمت دولة كانم وبرنو الإسلامية عددًا كبيرًا من القبائل، قبائل الصو والبربر المنحدرين من الصحراء الكبرى التى تقع شمالها، وقبائل الكانورى التى تتكون من خليط من العرب والبربر والزنوج وهم يكونون اغلب سكان هذه السلطنة، وكذلك بربر الطوارق العرب الذين يعرفون باسم الشوا، وأدى اختلاط هؤلاء إلى ظهور عناصر جديدة هم البلالة والتنجور والسالمان وغيرهم[٢].

وينقسم تاريخ هذه السلطنة إلى عصرين، عصر سيادة الكانم ثم عصر برنو، ويقع إقليم كانم فى الشمال الشرقى للبحيرة وإقليم برنو غرب البحيرة. وقد قامت هذه الدولة فى القرن التاسع الميلادى فى إقليم كانم، واستطاعت أن تسيطر على حوض بحيرة تشاد. ومنذ عام

(١) الوثنية والإسلام ـ المرجع السابق ـ ص١٧٧.
(٢) الموسوعة الإفريقية ـ المرجع السابق ـ ص١٩١.

١٠٨٩ أصبح الدين الإسلامى هو الدين الرسمى للدولة ولم يتولَ حكم كانم بعد هذا التاريخ أى ملك وثنى وأصبحت دولة اسلامية.

اتسعت دولة كانم حتى وصلت إلى مشارف وادى النيل وغربًا قرب نهر النيجر، ولم يكن لدولة كانم حدود واضحة فهى تقع بين منحنى النيجر ودارفور؛ لذلك كانت حدودها المفتوحة فى كل الجهات هى التى أدت إلى ظهور كانم كقوة حربية كبيرة فكان عليها لكى تعيش فى أمان أن تخضع الآخرين الطوارق وغيرهم من قبائل الصحراء الذين كانوا دائمًا ما يفتكون بالسكان المستقرين، كان على كانم إما أن تخضع هؤلاء أو يتمكنوا هم من إخضاعها، لذلك بذلت ما فى وسعها لغزو الآخرين.

وشهد القرنان التاليان توسعًا سريعًا لدولة كانم إذ دعمت قبضتها على حوض تشاد والصحراء الجنوبية، وفى القرن الثالث عشر ظهرت كانم كدولة عظمى وامتدت فى القرن الرابع عشر إلى النيجر غربًا.. وكان اتساع المملكة يحمل فى طياته بذور التفتت والانقسام فمن الشرق تدفق البدو والتجار العرب، وترتب على إغاراتهم أن أخذ الضعف يدب فى أركان الدولة، كما واجهت كانم أعداء آخرين فى مقدمتهم وثنيو الجنوب الاقوياء الذين شكلوا اتحادًا اكتسب درجة كبيرة من القوة فى بداية القرن الرابع عشر.

دب الوهن فى هذه المملكة نتيجة الخلافات والانقسامات بين الأسرة الحاكمة وقيام قبائل الصو التى كانت تسكن إقليم برنو الذين هاجموا عاصمتها، وانتهى الصراع إلى طرد الأسرة الحاكمة فى كانم ففرت إلى إقليم برنو الذى يقع غرب بحيرة تشاد.وكانت مملكة برنو أكثر الممالك شهرة فى غرب إفريقيا ووسطها؛ أسستها أسرة سيفى التى تنسبها الأساطير إلى سيف بن ذى يزن، وظلت هذه الأسرة تحكم حتى القرن التاسع عشر.

وشعب الصو هم السكان الأصليون لحوض تشاد، وحتى بداية القرن الثالث عشر كانت جارتها دولة كانم هى السائدة وبرنو مجرد إقليم فى الأطراف، وكان مركز الإمبراطورية هو حوض تشاد. ويعد القرن السادس عشر فترة عظمة برنو فقد امتدت سيادتها من دارفور إلى الحدود الغربية لبلاد الهوسا، وكان لدى برنو جيش لا يضارعه جيش آخر فى إفريقيا الزنجية كلها. ثم ما لبث أن ظهرت فى حوض البحيرة سلطنة صغيرة هى البُلالة بدأت تناوئ البرنو، وجرت بين البرنو والبُلالة حروب كثيرة انتهت بانتصار برنو حيث وصلت إلى أقصى اتساعها وقوتها وازدهارها على مدى قرنين من الزمان، ثم دب الوهن فيها بتوالى حكام

ضعاف، وحدوث عدد من المجاعات المتلاحقة بلغت خمس مجاعات استمر إحداها أربع سنوات وأخرى سبع سنوات، وأدى تكرار حدوث هذه المجاعات إلى تدهور وضعف عام ونقص الغذاء وأهملت الزراعة وكثرت الفتن والاضطرابات؛ فضلًا عن ظهور قبائل وثنية اجتاحت برنو الغربية.

٢ـ سلطنة البُلالة الإسلامية فى حوض بحيرة تشاد

٧٦٦ـ ١٣٨١هـ/ ١٣٦٥ـ ١٩٠٠م

قامت هذه السلطنة فى بلاد السودان الأوسط فى حوض بحيرة تشاد، وظهرت كدولة منذ عام ٧٦٦هـ/ ١٣٦٥م، واستمرت حتى بداية القرن العشرين عندما سقطت المنطقة كلها فى يد الاستعمار الفرنسى. ورغم طول مدة بقاء هذه السلطنة إلا أنها كانت تابعة لسلطنة كانم وبرنو فى كثير من فترات حياتها، ويعنى اسمها بُولالا أو بُلالة الأمراء النبلاء. وأصل البُلالة جاء من تصاهر عناصر من البربر والسودان والزنج، وظل البُلالة وثنيين حتى القرن الثانى عشر عندما تحولوا إلى الإسلام.

ظهر خطر البُلالة على سلاطين دولة كانم الإسلامية، وظلوا يتقلبون بين التبعية والتحرر من كانم حتى عام ١٣٦٥م عندما حققوا الاستقلال التام واتخذوا «ماسيو» عاصمة لهم. ونتيجة لعوامل كثيرة أدت إلى ضعف سلطنة كانم وقع إقليم كانم بأسره فى قبضة البُلالة مما جعلهم يحكمون دولة واسعة تمتد من حدود دارفور الغربية وبلاد النوبة السودانية حتى شواطئ بحيرة تشاد الشرقية.

حكم البُلالة إقليم كانم، ثم بدأ الضعف يدب فى أوصالها وبدأت الفتن والاضطرابات والحروب القبلية والصراع الطويل الذى كان بينهما وبين حكام برنو فأخذت تسير فى طريق الانهيار، خاصة أن سلطنات أخرى ظهرت مثل سلطنة واداى التى تقع فى الشمال الشرقى لدولة البُلالة وسلطنة باجرمى التى تقع جنوبها وأخذت هاتان السلطنتان تغيران عليها، ورغم ذلك ظلت البُلالة قائمة حتى بداية القرن العشرين حينما سقطت عام ١٩٠٠ فى قبضة الاستعمار الفرنسى مثلما وقعت بقية السلطنات الأخرى التى كانت قائمة فى حوض بحيرة تشاد، ومع ذلك استمر بعض سلاطين البُلالة يحكمون تحت راية هذا الاستعمار وظلوا كذلك حتى نالت البلاد استقلالها عام ١٩٦٠، ودخلت بلاد البُلالة ضمن حدود جمهورية تشاد الحديثة[١].

(١) الموسوعة الإفريقية ـ المرجع السابق ـ ص٢١٦ـ ٢٢١.

٣ـ بلاد الهوسا

بلاد الهوسا دولة إسلامية تتكون من عدة دول اشتهرت فى التاريخ باسم دول الهوسا السبع التى أصبحت الآن نيجيريا. وشهدت اغلب هذه الدول الإسلامية حركة الكشوف الجغرافية وحركة الاستعمار الأوروبى. التى طوت صفحة التاريخ القومى لتلك البلاد، ومن هذه الدول ما اصطدم بالاستعمار اصطدامًا طويلًا مريرًا[١].

تشمل بلاد الهوسا ما يعرف الآن بشمال نيجيريا وجزء من جمهورية النيجر. كانت فى العصور الوسطى تقع فى المنطقة المحصورة بين سلطنتى مالى وصنغى غربًا وسلطنة البرنو شرقًا، وقد أعطى لها موقعها امتيازًا خاصًا فإمبراطوريات السودان تحمى مشارفها الشمالية وتقف برنو حائلًا لها من بلاد الشرق، ولم يكن من المستطاع التغلغل فى بلاد الهوسا دون الإطاحة بالممالك البالغة القوة فى بلاد السودان الغربية. ولم يمارس الهوسا قط سيطرة سياسية على جيرانهم بل كانوا دائمًا خاضعين لهم ولكن كان لهم تاريخ حضارى متميز خاص بهم.

ينحدر شعب الهوسا من امتزاج جماعات قبلية وعرقية كثيرة أهمها السودانيون أصحاب البلاد الأصليين والطوارق والبربر والفولا وبعض العرب المهاجرين. وقد منحها موقعها الجغرافى موقعًا تجاريًا فريدًا عوّضها عن افتقارها إلى قوة سياسية فعالة، وزادت سيطرتها على التجارة فى بلاد السودان بعد انهيار سلطنة صنغى أمام الغزو المراكشى عام ١٥٩١م مما أدى إلى تحول المجرى الرئيسى للحركة التجارية مع شمال إفريقيا إلى بلاد الهوسا.

وممالك الهوسا كانت أربع عشرة مملكة، سبعة ممالك أصلية شكلت النواة الأساسية لبلاد الهوسا، وإلى جوارها ممالك سبع أخرى تعرف بأنها أشباه الهوسا[٢]، والهوسا مجموعة لغوية أكثر منها مجموعة قبلية، وهى المنطقة التى التقى فيها السودان بثقافة بنين الخصبة ونقطة التقاء التأثيرات الشرقية والشمالية، كما كانت حدودًا عرقية بين القبائل الشمالية التى تختلف عن القبائل الجنوبية الشرقية، وظل كل صراع يقوم بين هذه القبائل يدفع بأعداد

(١) المؤتمر الدولى الإسلامى فى إفريقيا / الكتاب الثامن/ بحث بلاد غرب إفريقيا الاسلامية عبر التاريخ/ السر سيد أحمد العراقى ص٣٦.

(٢) مجموعة ممالك الهوسا الأصلية عرفت باسم هوسا باكواى(أى ممالك الهوسا السبع) هى غربر، زكزك،دورا، كانو، كاتسينا، جاراف جابا، رانو. والمجموعة الفرعية وتعرف باسم بانزا باكواى(أى الممالك السبعة الفرعية) هى زنفرا، كب، ياور،نوبى، يرب أو ايلورين، بزغ، غرم. وكانت كل إمارة مستقلة، وكانت الحروب تندلع فيما بينها نتيجة لأطماع حكامها فى فرض سيطرتهم كل على الآخر.

كبيرة من الناس إلى بلاد الهوسا، وكان عامل التوحيد الرئيسى هو لغة الشعب وثقافته اللتان مكنتاه من امتصاص القادمين الجدد، وبرغم أن الهوسا لم يمارسوا قط سيطرة سياسية على جيرانهم وأنهم كانوا دائمًا خاضعين لهم فإن لهم تاريخًا ممتعًا يفسر حالة الحضارة فى غرب إفريقيا. وكانت ثقافة الهوسا تقف جنبًا إلى جنب مع ثقافة اليوروبا والبرنو وهى الثقافات التى تواصلت على الرغم من الهزائم والفتوحات العسكرية، وعند حلول القرن الثانى عشر اعتنق ملوكها والطبقات العليا فيها الإسلام فى حين ظل الشعب على عقيدته الوثنية.

وقد تميزت بلاد الهوسا على مدن منحنى النيجر بوقوعها فى قلب أكثر مناطق السودان إنتاجية، وبقربها الشديد من المناطق الاستوائية، ورغم أن الحروب العديدة التى قامت بين الهوسا إلا أنها كانت حروبًا لا تعدو كونها وسيلة لمنع ظهور أية قوة منافسة، كانت ممالك الهوسا أشبة بالمدن الدولة فى إيطاليا خلال عصر النهضة هدفها الرئيسى هو الرخاء التجارى.

٤ـ دولة رابح فضل الله

رابح فضل الله من زعماء المسلمين الذين قاموا بدور هام فى نشر الإسلام فى وسط إفريقيا وغربها، واستطاع أن يؤسس مملكة إسلامية واسعة وأن يقف أمام التوسع الأوروبى وخصوصًا الفرنسى فى تلك المنطقة حتى سقطت دولته بعد سبع سنوات من النضال المستمر والكفاح المتواصل ضد القبائل الوثنية تارة والممالك المحلية تارة أخرى والفرنسيين وأعوانهم من الحكام المحليين الذين تآمروا عليه، واستطاع أن يتنقل من سودان وادى النيل إلى وسط القارة وغربها حيث كان مقره حول بحيرة تشاد التى صارت مقرًا لدولته الإسلامية التى لم تعمر طويلًا، وكان من الممكن لهذه الدولة أن تعيش أطول لولا تصادف قيامها مع التوسع الأوروبى وابتلاع المنطقة بأسرها[١].

ولد رابح عام ١٨٤٦ فى إحدى قرى بحر الغزال، وكان ابنًا لأحد ملوك القبائل التى استوطنت حوض بحر الغزال، ونشأ على التربية العسكرية حيث كان والده قد انضم إلى السلك العسكرى المصرى، ثم انضم رابح إلى جيش الزبير باشا رحمت صاحب السلطة الحقيقية فى منطقة (بحر الغزال) والتى أجبرت مصر على الاعتراف بوضع المنطقة تحت حكم الزبير. استفاد رابح كثيرًا من انضمامه إلى الزبير واكتسب منه الخبرة التى جعلت منه

(١) المسلمون والاستعمار الأوروبى فى إفريقيا ص١٨٦.

القائد الذى سيلعب دورًا كبيرًا فى ممالك غرب إفريقيا فى كل من البرنو ووداى وعلى شاطئ بحيرة تشاد، وقد حاول الخليفة محمد أحمد المهدى فى السودان أن يعترف رابح بسلطته ولكنه لم يرد على خطاب الخليفة واتجه إلى الجنوب الغربى من دارفور. انطلقت من دارفور وبحر الغزال حركة رابح فضل الله بعد أن رفض الانصياع للمهدى واختار المقاومة، وتحرك بجنوده إلى أن وصل إلى كانم وبرنو، وحينما قرر الإنجليز التخلص من المهدى فى السودان كان رابح قد ملك كل ما كان يعرف بدارفور التى اصبحت تضم مساحة كبيرة من النيجر ومعظم تشاد وأجزاء من الكاميرون؛إذ استطاع رابح بجيشه الصغير أن يهزم سلطان وداى وأصبح الطريق إلى بحيرة تشاد ممهدة أمامه، وفى عام ١٨٨٩ أقام رابح فى المنطقة حكومة على درجة عالية من الاستقرار وامتد نفوذه إلى نهر شارى[1]، ثم اتجه إلى مملكة وداى وتوالت انتصاراته وتوسعاته فى المنطقة حتى دانت له كل بلاد برنو وبلغت دولته حوالى ١٥٠ ألف كيلو متر مربع وتضم أكثر من خمسة ملايين نسمة، وكان من الممكن أن يتوسع رابح أكثر إلا أنه اضطر لمواجهة قوه فرنسية تقدمت نحو برنو من الجنوب، وكان هذا بداية الصراع مع الفرنسيين.

رابح والصراع مع القوى الأوروبية:

صارت دولة رابح العقبة الأولى أمام توسعات الدولتيين الاستعماريتين فرنسا وبريطانيا اللتان تتنافسان على المنطقة، وكان رابح يمثل مشكلة كبرى أمام لجان تحديد الحدود بين الممتلكات الأوروبية فى غرب إفريقيا، فكان التفكير فى القضاء عليه من أهم أسس الاستراتيجية الأوروبية بشكل عام والفرنسية بشكل خاص، ومن هنا بدأ الصراع بين رابح والقوات الفرنسية، وفرنسا التى كانت قد خططت لضم المنطقة والاتجاه شرقًا نحو بحيرة تشاد والقضاء على قوه رابح. أرسلت عدة حملات ضد رابح استمرت سبع سنوات. كانت المعركة الأخيرة أن أصاب رابح القائد الفرنسى «لامى» بطلقه أردته قتيلًا وأصيب هو الآخر بجرح مميت، وانتهت المعركة بأن لفظ كل من «رابح»و«لامى» أنفاسهما الأخيرة.

واصل ابن رابح «فضل الله» النضال بجيش منهك وسلاح يكاد يكون معدومًا وكان الصراع حينذاك بين الفرنسيين والبريطانيين على أشده فى كل بقاع غرب إفريقيا،فحاول فضل الله أن يتصل بالبريطانيين لعله يجد منهم عونًا وجرت بينهما سلسلة من المراسلات.

(١) الوثنية والإسلام ص٣١٧.

أدركت فرنسا أن هذه العلاقة قد تقوض جهودها من أجل السيطرة على دولة رابح، فجدّت فى تعقب فضل الله واشتبكت معه فى معركة عنيفة أسفرت عن مقتله مع عدد كبير من الضحايا.

سقطت مملكة رابح بعد نضال بطولى استمر سبع سنوات من مايو ١٨٩٣إلى إبريل ١٩٠٠ بعد صراع دموى على أراضيه وتكالب محموم بين فرنسا وإنجلترا وألمانيا، كان جهاد رابح هو وابنه فضل الله ـ الذى حمل لواء النضال من بعده ـ صورة من صور جهاد المسلمين ضد الأوروبيين؛ تلك الصورة التى طمستها الكتابات الأوروبية وأشارت إليها فى عبارات ثانوية على أنها تمرد انتهى مع أول هجمة أوروبية، ولكن تاريخ الرجل سجلته وثائق عديدة ومعارك مدونة فى تقارير رسمية محفوظة فى دور الوثائق الأوروبية تنبض بروح الجهاد وحركات مقاومة إسلامية قادها زعماء أفارقة مسلمون وأفارقة ضد الهجمة الأوروبية الشرسة على القارة الإفريقية فى أواخر القرن التاسع عشر[1].

*****

(١) المسلمون والاستعمار الأوروبى فى إفريقيا ص٢١٧.

الفصل الثانى

المقاومة فى السودان الغربى والأوسط

مقاومة الممالك الإسلامية فى القرن ١٩

١ـ مقاومة إمبراطورية الفولانى.

٢ـ مقاومة اليوروبا.

٣ـ مقاومة إمبراطورية التكرور والبمبارا.

٤ـ مقاومة ساموری توری للغزو الفرنسى.

٥ـ ثورة الشيخ المحارب محمد الأمين.

مقاومة الممالك الاسلامية فى القرن ١٩

كانت الفترة الممتدة من ١٨٠٠ـ ١٩٠٠ هى الفترة التى بلغ فيها الغزو والاحتلال الاوروبى لغرب إفريقيا مداه، فلم يحدث من قبل على مر التاريخ المعروف للقارة أن شهدت مثل هذا النشاط العسكرى من الغزوات والحملات ضد الدول والمجتمعات الإفريقية، وفى هذه الفترة كان الإفريقيون جميعًا يتوخون نفس الهدف ألا وهو الدفاع عن سيادتهم وأسلوبهم التقليدى فى الحياة. كانت المقاومة الإفريقية أطول أمدًا، ويرجع السبب إلى الإسلام الذى كان منتشرًا بين شعوب تلك المنطقة، فإن تلك الشعوب عمدت إلى مقاومة الأوروبيين بحماس وإصرار كان يفتقد إليهما معظم من لا يدينون بالإسلام.

وهذا الفصل يتعرض لمقاومة الممالك الاسلامية للغزو الأوروبى فى القرن التاسع عشر، وهو يشمل ممالك السودان الغربى والأوسط أى المساحة الواسعة الممتدة من الساحل الغربى الإفريقى حتى السودان الشرقى سودان وادى النيل؛ لذلك لا يمكن تجزئة المقاومة أو تحديدها بين غرب السودان ووسطه إذ كانت تلك مساحة واحدة ليست محددة الحدود كما هو الحال الآن، دخل شعوبها الإسلام وشيدوا ممالك إسلامية عظيمة كما سبق البيان فى الفصل السابق، وهؤلاء هم من قاوموا الغزو الاستعمارى ببطولة وروح استشهاد سجلها لهم التاريخ.

* * *

دخل الإسلام إقليم غرب إفريقيا عن طريق موجتين إسلاميتين، فى الموجة الأولى انتشر بطيئًا وامتد إلى سبعة قرون ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى، وكانت طلائع الموجة الأولى من الملثمين (الطوارق) الذين نشروا الإسلام سلميًا، أما الموجة الإسلامية الثانية فكانت على أيدى قبيلة الفولانى، وفاقت هذه الموجة خلال قرن واحد ـ القرن التاسع عشر ـ ما حققته الموجة الأولى فى سبعة قرون .

كان انتشار الإسلام فى غرب إفريقيا فى البداية بفضل هجرات القبائل العربية وقبائل البربر التى أخذت تهاجر إلى غرب إفريقيا باحثة عن ظروف تتشابه مع الحياة السائدة فى بيئتها الأصلية، وترتب على هذا التحرك والهجرات أن اضطرت القبائل المحلية من البربر والزنوج إلى التوسع جنوبًا، وكانت هذه القبائل حلقة الاتصال بين المغرب بشعوبه وثقافته والمحيط الزنجى الذى يمتد إلى بحيرة تشاد. ولما قامت دولة المرابطين فى المغرب زحف دعاتها جنوبًا إلى السنغال حيث تمكن زعيمها الروحى عبد الله بن ياسين من تكوين نواة المرابطين فى جزيرة صغيرة عند نهر السنغال على مقربة من ساحل المحيط الأطلسى، كانت هذه الجزيرة حجر الأساس لقيام دولة المرابطين التى امتدت من السنغال إلى غينيا حتى ساحل العاج والنيجر ودخلوا إمبراطورية غانة الوثنية وفتحوها وصارت إمبراطورية إسلامية. ويعزى إلى دولة المرابطين تأسيس مدينة تمبكتو عند منحنى نهر النيجر (فى دولة مالى الحالية) التى أصبحت حاضرة عربية إسلامية على درجة كبيرة من الأهمية العلمية والدينية والاقتصادية فى إفريقيا الغربية[1].

لم يكن دخول الإسلام فى جنوب الصحراء على يد المرابطين بغرض نشر الاسلام فى المنطقة فحسب وإنما إنشاء كيان إسلامى فيها يعينهم على بسط سيطرتهم على المنطقة بكاملها. مكنتهم الجزيرة الصغيرة النائية على نهر السنغال أن يجمعوا أتباعًا كثر من جنسهم الصهناجة وجيرانهم الولوف والسونكى والفلانيين وغيرهم من شعوب المنطقة ولولا هذا التجاوب من الأهالى لما تمكنوا من إنجاز مهمتهم[2].

انتشر دعاة المرابطين من السنغال إلى غينيا حتى ساحل العاج والنيجر ودخلوا إمبراطورية غانة الوثنية القديمة فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر وفتحوها وصارت إمبراطورية إسلامية حتى انتهت فى القرن الثالث عشر، وقامت على آثارها إمبراطورية مالى الإسلامية ثم دولة صنغى الإسلامية التى توسعت جنوبًا، ولولا الغزو المغربى فى أواخر القرن السادس عشر لكان لهذه الدولة شأن كبير فى بلاد الزنج[3].

(١) مركز دراسات الوحدة العربية- الجماعات العربية فى إفريقيا ـ دراسة فى أوضاع الجاليات والأقليات العربية فى إفريقيا/ د. عبد السلام بغدادى ص٢٠٧.
(٢) المؤتمر الدولى «الإسلام فى إفريقيا» ـ المرجع السابق ـ الكتاب الخامس سعيد جالو ص٢٣٢.
(٣) Islam's Blaok Slaves Ronald Segal.P164.

١ـ مقاومة إمبراطورية الفولانى

بعد تفكك دولة صنغى ساد منطقة السودان الغربى فترة من الفوضى استمرت حوالى قرنين من الزمان حتى نهض الفولانى وقاموا بثورتهم الكبرى مع إشراقة القرن التاسع عشر.

أخذت قبائل الفولانى تنتشر بالتدريج فى السودان الغربى وأعالى السنغال وشقوا طريقهم إلى بلاد الهوسا فى نهاية القرن الثالث عشر، وصاروا قوة مسيطرة بعد نجاح حركة الجهاد الفولانى بزعامة الشيخ عثمان بن فودى.

والفولانى شعب من الرعاة وبقوا شعبًا رعويًا بعد أن استقروا فى الإقليم الشمالى لنيجيريا وعاشوا حياة المدن وصاروا مسلمين وبعضهم تعمق فى الثقافة الإسلامية ومن هؤلاء كان الشيخ عثمان بن فودى الذى قاد ثورة ضد ملوك الهوسا رغم إعلان هؤلاء انتماءهم للإسلام ولكن أنكر ذلك عليهم واعتبرهم وثنيين، وقاد حركة التجديد الإسلامى لتصحيح الإسلام الذى كان قد امتزج بالتقاليد الوثنية. وفى بداية القرن التاسع عشر صارت ثورته جهادًا وانتشرت فى كل أنحاء بلاد الهوسا.

ولد الشيخ عثمان بن فودى عام ١٧٥٤ فى ولاية سكوتو (شمال نيجيريا) من قبيلة الفولانى. أقام فى النيجر وهو يعتبر أول داعية فى إفريقيا قام بتغير المنكر بالسلاح وأقام دولة تحكم بكتاب الله والسنة على نمط الحكومات الإسلامية الأولى فى صدر الإسلام، ورفض أن يكون المهدى المنتظر على الرغم من استعداد الناس لتقبل ذلك منه لو ادعاه، وظل يلقب أمير المؤمنين حتى توفى عام ١٨١٧، واستمرت دولته التى خلفه فيها أبناؤه تحكم بلاد الهوسا قرنًا من الزمان من ١٨٠٤ـ١٩٠٤[1].

فى مطلع القرن التاسع عشر وبالتحديد عام ١٨٠٤ بدأت الثورة الفودية تحت قيادة الشيخ عثمان فى سكوتو، وكان مجتمع الهوسا يتكون من المسلمين والوثنيين والمخلطين بين العادات الجاهلية والإسلام.وبدأ الشيخ فى استنفار الطاقات الإسلامية ومهاجمة النظام السياسى فى بلاد الهوسا والحكم بعدم إسلاميته ونادى بضرورة الإطاحة به.وتُوجت ثورته بإقامة الخلافة الفودية الإسلامية فى سكوتو وألقت بظلالها على معظم الغرب الإفريقى حتى السودان الشرقى الذى شهد ثورة المهدية فيما بعد.

(١) الشيخ عثمان بن فودى ـ إصدار جامعة إفريقيا العالمية ومنظمة اليونسكو ص٤١.

وفى عام ١٨١٢ تأسست إمبراطورية الفولانى على النهج الإسلامى وعلى مبدأ الخلافة، وصار الشيخ عثمان خليفة ولكنه ابتعد عن الحكم من أجل التفرغ للدرس والوعظ وتأليف الكتب الدينية. وانقسمت الإمبراطورية بين شقيقه عبد الله الذى حكم النصف الغربى وابنه محمد الذى حكم النصف الشرقى، ومع وفاة الشيخ عام ١٨١٧ خلفه ابنه وشرع فى دعم الإمبراطورية كخليفة لكل البلاد، ولم يكن الطموح للتوسع مما يمكن وقفه فتحركت جيوش الفولانى فى اتجاه الغرب إلى يوروبا لاند (أرض اليوروبا) حيث سيطروا على الأقاليم الشمالية من الإمارة الجنوبية «أويو» وأخضعوها وأسسوا إمارة ايلورين Ilorin وكانت هذه القاعدة التى انتشر فيها الإسلام بين اليوروبا، وتاريخيًا فإن جيوش الفولانى تحركت شرقًا وصارت إمبراطوريتهم فى حالة حرب مع مملكة بورنو، وانتشرت فى المناطق الشاسعة التى تصل إلى أنهار النيجر والسنغال[١].

وعاشت إمارات الدولة الفولانية (نيجيريا الشمالية) طوال القرن التاسع عشر فى حملات جهاد مستمرة ضد الوثنيين، وكانت على دراسية بخطط المناطق التى يعلنون فيها حروب الجهاد، وبعبارة أخرى عرف المسلمون نظم الحرب لدى القبائل التى يشنون عليها حروبهم.

وضعت قرارات مؤتمر برلين مناطق نيجيريا الشمالية والجنوبية ضمن مناطق النفوذ البريطانى، وبدأت بريطانيا تعمل على بسط نفوذها على المناطق الشمالية الإسلامية التى كانت الشركة البريطانية «شركة النيجر الملكية»[٢] عقدت مسبقًا سلسلة من المعاهدات مع حكام نيجيريا الشمالية.

(١) تجارة العبيد فى إفريقيا ـ المرجع السابق ـ ص١١٨.

(٢) الشركات التجارية الأوروبية تلخص قصة الاستعمار الغربى كله الذى بسط سيطرته على العالم فى القرون الماضية، أعملت هذه الشركات أسوأ أشكال النهب الاستعارى والعنف العنصرى الهمجى الممنهج بهدف استنزاف خيرات الشعوب واسترقاقها وتدمير مقومات الإنسانية. كانت الشركات تأتى فى العلن بهدف التجارة ولكنها بقيت من أجل الحكم، وقد وقفت الاستراتيجية البريطانية خلف هذه الشركات ومنحتها امتيازات شبه سيادية من بينها حق سك العملة فى فروعها الخارجية والاضطلاع بالسلطة القضائية فى المستعمرات وحق تكوين الجيوش المسلحة بل وحقها فى شن الحروب.
كانت الشركات التجارية الضخمة تقوم بالاستحواذ على ثروات شعب بأكمله لمصلحة شركة وحيدة تصب فى النهاية فى الدولة الاستعمارية. وكانت الشركات على استعداد لارتكاب جرائم مروعة لأنها كانت تعلم جيدًا أنه لا يوجد من القوانين فى بريطانيا ولا فى العالم ما يمنعها أو يحاسبها على ارتكاب تلك الجرائم. ويذكر أن شبه القارة الهندية فى عام ١٧٥٠ كانت تنتج ربع الإنتاج الصناعى من الأقطان فى العالم فى حين كانت بريطانيا تنتج فقط ٩ , ١٪ من الإنتاج العالمى. وكانت هذه الأقطان الهندية بضاعة حيوية تتم مقايضتها بالحمولات البشرية من العبيد. لقد استخدم مبدأ تحرير التجارة والتجارة الحرة لتبرير السياسات الاستعمارية غير الإنسانية.
[مقتطفات من كتاب «الشركة التى غيرت العالم» نك روبينز/ مطبوعات مكتبة الشروق الدولية].

قامت بريطانيا بحملات مسلحة بالبنادق سريعة الطلقات ورشاشات مكسيم على ممالك الشمال، وتمكنت بعد مقاومة عنيفة من إخضاع الإفريقين الثائرين سلالة الشيخ عثمان بن فودى، ومما أدهش البريطانيين أن سائر حكام الشمال لم ترهبهم هذه الأسلحة بل قرروا بدافع من كراهيتهم الشديدة للغزاة الكفار أن يقاتلوا حتى الموت دفاعًا عن أرضهم ودينهم.. كان الحكام على مستوى التحدى ولكن لم يكن لديهم ردّ فعَّال على رشاشات مكسيم والبنادق والمدافع وغيرها من أسلحة العدو المتطورة. ومع ذلك قاوموها بمواجهات بطولية شهد بها المستعمر نفسه.

دارت المعارك بين طرفين غير متكافئين؛ طرف يحمل أحدث الاسلحة وأحدث ما وصل إليه العلم من وسائل حربية متطورة وتنظيمات عسكرية وجيوش مدربة على أحدث نظم القتال، وطرف سلاحهم الإيمان بالله والدين الإسلامى هدفهم الصمود حتى النهاية دفاعًا عن الدين وحماية لأرض المسلمين ضد الغزاة الأوروبيين حتى سقطت الخلافة الإسلامية فى أيدى البريطانيين ١٩٠٤.

ولما سقطت الدولة ودخلت فى ظل الحكم البريطانى عجز البريطانيون عن تغيير النظم الإسلامية التى ترسخت فى النفوذ ومارسها الشعب طوال قرن.ولم يجد البريطانيون بديلًا أفضل من تلك النظم الإفريقية القائمة فتركوها وأبقوا عليها، ومازال المسلمون فى نيجيريا يشكلون أغلبية السكان، ومازالت نيجيريا حتى الآن أكبر دولة إسلامية فى غرب إفريقيا بل فى القارة الإفريقية كلها، وذلك بفضل جهود خلفاء دولة الفولانى الإسلامية، وبفضل روح النضال والكفاح الذى بذلوه طوال قرن من الزمان، وبفضل حملات الجهاد وإنشاء مدن المرابطين الإسلامية التى كانت ركائز لنشر الدين الإسلامى فى أعماق الصحراء وعلى حواف الغابات الاستوائية.

٢ـ مقاومة اليوروبا ضد الغزو الإسلامى والبريطانى

كان اليوروبا أكثر الشعوب الوثنية مقاومة للفولانى بالرغم من أن أحوال اليوروبا فى ذلك الوقت كانت مضطربة للغاية بسبب الحروب المهلكة فيما بينهم والتى أنهكتهم، وغزوات جارتهم داهومى لهم من ناحية وهجمات الفولانى عليهم من ناحية أخرى. وظن الفولانى الذين أسكرتهم انتصاراتهم على ممالك الهوسا فى الشمال أن بلاد اليوروبا فى الجنوب قد دان قطوفها وأن بإمكانهم محاربة اليوروبا بسهولة، ولكن كان هذا الاعتقاد وهمًا فلم

تكن قوة الفولانى ترتكز على أساس صلب إذ كانوا مشتتين على امتداد منطقةفسيحة للغاية وكان إحكام قبضتهم عليها هزيلًا، وكل ما فعلوه باجتياحهم هذه الأراضى هو إدخال بعض الأهالى فى الإسلام فى حين كان اليوروبا رغم الحروب فيما بينهم قد وقفوا متحدين فى جبهة واحدة أمام الغزو الفولانى واعتبروهم غزاة أجانب، وأصبحت حرب اليوروبا ضد الفولانى نضالًا من أجل صيانة الوجود القومى[1]، ويعد ذلك بداية ظهور وعى قومى إذ عُدّ القتال من أجل طرد الفولانى التزامًا قوميًا ووقفوا فى وجههم جبهة واحدة بالرغم من أنهم استمروا فى ذات الوقت يحاربون بعضهم بعضًا، وهكذا كانت نتيجة عدوان الفولانى نهوض قومية اليوروبا وظهور فكرة القومية إلى الوجود فى غرب إفريقيا.

توغل النفوذ البريطانى إلى معظم بقاع اليوروبا بفضل نشاط المبشرين، وكان عدد من المعاهدات التجارية ومعاهدات الحماية قد أبرم بين البريطانيين وكثير من حكام اليوروبا، ذلك أن شعب اليوروبا كان قد ملّ من حروبه الداخلية، ومن ثم قبل تدخل البريطانيين ماعدا الايجيبو فهى الدولة الوحيدة من دول اليوروبا التى قاومت المبشرين والتجار البريطانيين ورفضت الخضوع للنفوذ البريطانى.

ولكن البريطانيين الذين كانوا قد عقدوا العزم على احتلال بلاد اليوروبا قرروا أن يلقنوا الايجيبو درسًا قاسيًا يُظهر لسائر دول اليوروبا عدم جدوى الوقوف فى وجة أطماعهم، فشنت بريطانيا حملة ضخمة مسلحة بالبنادق والمدافع الرشاشة وألحقوا هزيمة قاسية بالايجيبو. ويبدو أن دول اليوروبا وعت الدرس من هذا الغزو؛ لذلك لم يكن غريبًا أن توافق شعوب اليوروبا على إبرام المعاهدات مع البريطانيين وقبولهم مقيمين فى بلادهم، وما إن حلّ عام ١٩٠٠ حتى كانت جهود الإفريقين للحفاظ على سيادتهم واستقلالهم قد أحبطت[2].

٣ـ مقاومة إمبراطورية التكرور والبمبارا

انتشر الإسلام فى غرب إفريقيا عندما ظهرت طلائع المرابطين الذين جاءوا من المغرب الأقصى ودخلوا عن طريق سهل المحيط الأطلسى واتجهوا جنوبًا حتى حوض السنغال، ولكنهم لم يتوسعوا أكثر جنوبًا بسبب الغابات الاستوائية وبسبب مقاومة أهالى البلاد الوثنيين وخصوصًا شعب البمبارا.

(١) الوثنيه والإسلام ـ المرجع السابق ـ ص٣٤٧.
(٢) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ـ ص١٤٦.

كوّن المرابطون ممالك ومدن إسلامية عديدة فى السودان الغربى، ونجحوا فى إرساء أسس العقيدة الإسلامية على أسس صحيحة بعد أن اختلط فيها الإسلام بالعادات الوثنية فكان من الضرورى قيام حركات إصلاحية لتصحيح العقيدة، وتصادف قيام هذه الحركات الإصلاحية مع بدايات التوسع والتكالب الأوروبى على مناطق القارة فصار جهادها فى جبهتين: جبهة ضد الأهالى الوثنيين وجبهة ثانية ضد الغزاة الأوروبيين، وهذا ما أعطى المسلمين صفة دوافع جهادية ضد ما اعتبروه من الحروب الصليبية والتى سجل فيها زعماء الإسلام بطولات فائقة ووقفوا سدًا منيعًا ضد محاولات التوسع الأوروبى[1]. ومن أبرز هذه الزعامات الحاج عمر الفوتى التكرورى الذى أعلن عام ١٨٥٢ الجهاد ضد الوثنيين فى السودان الغربى، واستطاع خلال عشر سنوات أن يسيطر على مناطق السودان من حدود تمبكتو حتى حدود السنغال، واعتبر رسالته المقدسة هى تنقية الإسلام فى السودان الغربى مما علق به من شوائب، ووضع حد للوثنية وتطبيق الشريعة الإسلامية، ومن هنا وضع نفسه على رأس دولة إسلامية[2]، واتبع أسلوب العنف فى تحويل الأهالى الوثنيين إلى الإسلام. بدأ الجهاد بالزحف بقواته تجاه الشمال ودخل عاصمة البمبارا ثم اتجه بقواته نحو الشرق وحقق انتصارات بعيدة المدى ضد الشعوب الوثنية، ونجح نجاحًا ملحوظًا فى تحويل الوثنيين إلى الإسلام.

وعمر الفوتى عالم سياسى مجاهد من قبيلة التكرور فى منطقة فوتاتورو فى غرب إفريقيا، اشتهر بعلمه الواسع وتقواه وكان من أشهر دعاة الطريقة الصوفية التيجانية فى غرب إفريقيا. وفى عام ١٨٤٥ استقر فى منطقة على حدود الفولانيين المتاخمة لفوتاتورو وبدأ فى تأسيس الدولة التيجانية وذلك بتجنيد الفولانيين والتكرور، ثم جذب إليه الرجال الطموحين بأعداد كبيرة من الجماعات المختلفة وسلّحهم بأسلحة حديثة حصل عليها من التجار من الساحل[3].

وفى عام ١٨٥٤ سيطر الحاج عمر الفوتى على معظم أعالى نهر السنغال، وحاول تحسين علاقاته مع الفرنسيين مقابل الحصول على أسلحة وذخيرة فرفض الفرنسيون وبدأ العداء

(١) المسلمون والاستعمار الأوروبى فى إفريقيا ـ المرجع السابق ـ ص٨٠.
(٢) امتدت دولة عمر الفوبى من غينيا إلى سيجو فى مالى، وكانت الثقافة الإسلامية هى السائدة واللغة العربية لغة التكامل والعلم حتى جاء الاستعمار الفرنسى الذى قضى عليها.
(٣) الموسوعة العربية الإسلامية/ العدد ١٧ الطبعة الثانية ١٩٩٩/ مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع فهرسة مكتبه الملك فهد الوطنية ص٥٨٥/ المملكة العربية السعودية.

صريحًا بينهما، قام الحاج عمر بمصادرة بضائع الفرنسيين على طول نهر السنغال وهاجمت قواته القلعة الفرنسية، أدرك الفرنسيون أنهم يواجهون حربًا مثلما حدث فى الجزائر، وأن الحاج عمر ينظم لثورة عامة ضدهم، فاشتبكوا معه فى عده معارك شعر بعدها الحاج عمر أنه لا يستطيع مواجهة الأوروبيين فى هذه المنطقة واتخذ قراره بإنشاء دولة متكاملة فى الشرق بعيدًا عن النفوذ الفرنسى.

حاول تحسين العلاقات مع الفرنسيين حتى يتفرغ لدولته الجديدة، ولكن الفرنسيين كانوا قد خططوا على تقوية مكانتهم على حساب إمبراطورية الحاج عمر وبدأت السياسة التوسعية الفرنسية للقضاء على هذا الزعيم المسلم، وأدرك هو أن أطماع الفرنسيين لا حدود لها وأن محاولات الصلح ما هى إلا مرحلة مؤقتة فى خطط الفرنسيين لا بتلاع ممتلكاته وضمها للسيطرة الفرنسية؛ لذا قرر الاتجاه إلى منطقة النيجر على أمل التحالف مع زعماء المسلمين هناك فى محاولة لتوحيد صفوف المجاهدين ضد عدو أجنبى يطمع فى السيطرة على بلادهم، ولكن هؤلاء الحكام المسلمين خافوا منه وتصوروا أنه جاء لغزوهم والقضاء عليهم فتحالفوا ضده واضطر للدخول فى حرب ضدهم. وفى عام ١٨٦٣ قامت ثورة ضده اشترك فيها البمبارا الوثنيون والفولانى المسلمون، ولم يعد للحاج عمر أى حلفاء فى المنطقة وتعقبوه حتى استشهد فى فبراير ١٨٦٤ وهو يناضل من أجل دولته الإسلامية وضد التوسع الفرنسى، وعلى الرغم من أن موته لم يحدث فى معركة مع الفرنسيين فقد عده المؤرخون أول زعيم أفريقى يقاوم الاستعمار الفرنسى فى غرب إفريقيا[1].

حارب الحاج عمر فى ثلاث جبهات: حرب ضد الوثنيين فى الغرب، وحرب ضد المسلمين فى الشرق، وحرب ضد الاستعمار الفرنسى. ونشر الطريقة التيجانية فى المنطقة التى دانت لسيطرته ما بين نهر السنغال ونهر النيجر، ورغم سقوط امبراطوريته للسيطرة الاستعمارية إلا انها استمرت تقاوم التبشير المسيحى، وتمارس حياتها الدينية وحافظت على تراث الإسلام أمام موجات الغزو والتوسع الاوروبى والتبشير المسيحى[2].

استشهد مؤسس إمبراطورية التكرور عمر الفوتى عن عمر يناهز السبعين عامًا وخلفه ابنه أحمدو. كان أحمدو شأنه شأن معظم الحكام الإفريقين مصممًا على إنقاذ إمبراطورية

(١) الإسلام وتداخل الثقافات فى السنغال/ جامعة إفريقيا العالمية، د. مهدى ساتى ص١٨٤.
(٢) المسلمون والاستعمار الأوروبى لإفريقيا ص١١٧.

والحفاظ على استقلالها وسيادتها، وفى سبيل ذلك اتبع استراتيجية التحالف وسياسة الجابهة أيضًا، وهو وإن كان اعتمد على الاستراتيجية الأولى أكثر من اعتماده على الثانية، فقد ظل منذ اعتلائه الحكم وحتى عام ١٨٩٠ ملتزمًا بسياسة التحالف مع الفرنسيين، ولم يلجأ إلى الحرب الا فى السنتين الأخيرتين، وقد اضطر إلى ذلك لأنه فى بداية حكمة فرض عليه القتال فى ثلاث جبهات: ضد إخوته الذين كانوا لا يعترفون بسلطته، وضد رعاياه (البمبارا والماندنجو والفولانيين وغيرهم) ممن كانوا يمقتون حكامهم الجدد من التكرور، وضد الفرنسيين. ومما زاد من محنته أن الجيش الذى استعان به أبوه فى بناء إمبراطوريته كان قد ضعف عدديًا، كما حاول إخوته الإطاحة به ١٨٧٢، واندلعت ثورات البمبارا فاحتاج إلى السلاح واضطر إلى التفاوض مع الفرنسيين وسمح للتجار الفرنسيين بمزاولة التجارة فى إمبراطوريته مقابل تزويده بالمدافع والاعتراف بسلطته، ولكن الإدارة الفرنسية لم تصدق على هذا الاتفاق، ولم يتلق أحمدو أى سلاح بل ظل الفرنسيون يساعدون المتمردين وبالذات البمبارا الذين كانوا أعظم قوة حربية فى السودان الغربى بعد سقوط الصنغى.

وفى عام ١٨٨١ بدأ الفرنسيون غزو الإمبراطورية تحت القيادة العسكرية الفرنسية الجديدة لأعالى السنغال، واحتلوا مدينة ماباكو على ضفاف النيجر دون أية مقاومة. وكان رد فعل أحمدو أنه حظر بيع أى شىء للفرنسيين فى بلاده. وفى عام ١٨٨٩ شن الفرنسيون هجومًا عليه، وعندئذ فقط تخلى أحمدو عن سلاح الدبلوماسية ليمسك بسلاح المقاومة العسكرية، ولكن الفرنسيين أنزلوا هزيمة ساحقة بجيشه مستخدمين مدافعهم وأسلحتهم الحديثة فهزم جيش التكرور ونفى أحمدوا فى بلاد الهوسا ولكنه ظل حتى وهو فى منفاه مصممًا على موقف « الاستقلال دون تنازلات إزاء الفرنسيين».

قارب نضال التكرور ضد الفرنسيين مدة نصف قرن أرهق فيها المسلمون الفرنسيين الذين اضطروا إلى تغيير القيادة أكثر من مرة، وتحملت الميزانية الفرنسية نفقات كثيرة وتكبدت القوات الفرنسية أعدادًا كبيرة من القتلى والجرحى. ورغم سقوط الإمبراطورية سياسيًا إلا أن أتباع الحاج عمر واصلوا الجهاد الإسلامى من امثال ساموری توری والشيخ محمد الأمين فى أعالى النيجر والسنغال.

مقاومة البمبارا:

كان البمبارا أعظم قوة حربية فى بلاد السودان وأكثر القبائل الوثنية أهمية. ولفظ البمبارا يُطلق على كل القبائل الوثنية فى المقاطعات الغربية من بلاد السودان. وكانوا أصلًا خاضعين

لإمبراطورية مالى، ومع انهيار تلك الإمبراطورية سنحت الفرصة لهم بالتوسع فشرعوا يبسطون نفوذهم على بلاد السودان منذ منتصف القرن السابع عشر.

لم يكن البمبارا شعبًا متحدًا بل كانوا منغمسين فى حروب مستمرة، ولم تفلح محاولات جمع شملهم فى مملكة واحدة، ومع ذلك استطاع البمبارا مد سلطتهم إلى تمبكتو ،غزوها وأرغموا حكامها على الاعتراف بهم أسيادًا لهم.

كان عام ١٨٠٨ بداية فترة جديدة فى بلاد السودان إذ بدأ جهاد الفولانى فى بلاد الهوسا وأصبح ازدهار الاسلام ملموسًا فى بلاد السودان الأخرى، وواجه البمبارا الوطأة الشديدة من هذا الازدهار. وكان أحمدو الفولانى أول المنادين بالجهاد فى بلاد السودان حيث التحم بجيش البمبارا ١٨٨١ وأوقع هزيمة به،واستمرت الحروب بين الفولانى والبمبارا سجال بين انتصار وهزائم، وظل البمبارا يقاتلون على الرغم من هزائمهم المتكررة. فى ذلك الوقت كان تغلغل الفرنسيين فى بلاد السودان يمضى سريعًا فى طريقه. وقد رحب البمبارا بالفرنسيين كمخلصين لهم ولكن سرعان ما ثاروا عليهم بعد فوات الأوان وسحقهم الغزو الفرنسى.

٤ـ مقاومة ساموری توری للغزو الفرنسى:

يعتبر ساموری توری من الزعماء الأفارقة الذين لعبوا دورًا هامًا فى القارة الإفريقية واستمر فى مقاومة الغزاة الأوروبيين حوالى عشرين عامًا من ١٨٨٠ حتى القبض عليه عام ١٨٩٨ بعد أن كان أسس دولة إسلامية فى منطقة أعالى النيجر.

وساموری توری واحد من الشخصيات الأسطورية فى غرب إفريقيا يُعرف بالبطل الكبير المناضل من أجل حرية غرب إفريقيا وتشخيصًا للمقاومة الإفريقية. كان زعيمًا ثوريًا على غرار معظم زعماء السودان الغربى فى القرن التاسع عشر ـ زعيمًا دينيًا وسياسيًا ـ والحقيقة أنه وجُد فى بلاد السودان فى خلال هذا القرن زعماء كثر يحملون القرآن بيسارهم والسيف بيمينهم ـ كان جنديًا على جانب كبير من المهارة، وظل يشن حرب عصابات على الفرنسيين ما يقرب من عشرين عامًا. مارس ساموری نشاطه على حدود سيراليون وساحل العاج وغينيا وليبيريا، كانت خططه غاية فى البساطة إذا ما ركز البريطانيون قواتهم ضده انتقل إلى أراضى الفرنسيين والعكس، وإذا ما قام الفرنسيون بغزو مناطقه سرعان ما يحشد جيوشًا جديدة ويغزو مناطق جديدة.

ولد ساموری ١٨٣٣ من عائلة إسلامية مجاهدة من جماعة التورى، وعرف الكثير عن الجهاد الإسلامى الذى دار فى المناطق المجاورة، وتدرب على فن قيادات جماعات الإغارة على القبائل الأخرى، واكتملت شخصيته بعد أن جمع حوله أعدادً كبيرة من الشباب الذين وجدوا فيه قائدًا يجمع شملهم.

بدأت معرفته بفنون الحرب عندما سجنت أمه من قبل عائلة خصمه، وبما أنه لم يكن يملك المال الكافى لشراء حريتها فقد دخل فى خدمة هذه العائلة على أساس أن يكون جنديًا مقاتلًا لهم مقابل إطلاق سراحها، وكرّس نفسه لمهنته الجديدة وهى الحرب والقتال، وكوّن جيشًا دربه على درجة من الجدية والقسوة بما لا مثيل لهما فى إفريقيا ثم شرع فى تشييد مملكته عام ١٨٧٠.

كوّن أول مملكة إسلامية صغيرة فى هذه المنطقة (منطقة أعالى النيجر) بعد انهيار الممالك الإسلامية الكبرى مالى وصنغى. درب جيشًا وزوده بأسلحة حديثة حصل عليها من تجار الساحل ومن الأهالى ومن البريطانيين المقيمين هناك، وبعدما وصل هذا الجيش إلى ذروة استعداده بدأ ساموری بالإغارة على القرى والمراكز التابعة للفرنسيين، وأرسل إلى سلطان التكرور يطلب منه التحالف معه ضد هذا العدو الأوروبى. وكان عاما ١٨٨١ـ١٨٨٢ بداية مواجهة عنيفة بينه وبين الفرنسيين. كان ساموری انتهى من توحيد الشطر الجنوبى من مناطق السافانا على طول غابات غرب إفريقيا الكبرى فيما بين المناطق الشمالية من سيراليون حتى ساحل العاج بحيث أصبحت هذه المنطقة إمبراطورية واحدة لا ينازعة فيها منازع. وفى عام ١٨٨٢ حدث أول صدام بينه وبين الفرنسيين عندما أخطرته القيادة العليا الفرنسية لأعالى السنغال والنيجر بالانسحاب من مدينه كينيزان التى كانت مركزًا تجاريًا هامًا، ورفض ساموری هذا الأمر وعقد عزمه على المواجهة الكبرى بينه وبين الفرنسيين. وبالرغم من أن الفرنسيين كتب لهم التفوق إلا أنهم وجدوا أنفسهم بين الخراب والعزلة لأن الإمام ساموری أمر السكان المحليين بترك المناطق التى يقترب منها الفرنسيون مع أخذ كل المؤن والمواد الغذائية وتدمير القرى، ثم انسحب من أمام الفرنسيين وواصل تقدمه شرقًا بعيدًا عن توغل الفرنسيين داخل إمبراطوريته، فاحتلت فرنسا الجزء الغربى من إمبراطوريته ووصلت إلى حدود سيراليون، واضطر ساموری إلى توقيع معاهدة مع فرنسا اعترف فيها بملكية الفرنسيين للضفة اليسرى من النيجر.

لم يكن فشل ساموری مرجعه افتقاده إلى المهارة الحربية أو الفطنة السياسية وإنما

كان وجود الأوروبيين هو مصدر سوء حظه إذ كانت فرنسا تبسط نفوذها ببطء على الأجزاء الغربية من بلاد السودان، كما واجه ساموری متاعب من جانب آخر فقد كان يحصل على السلاح من البريطانيين الذين وجدوه أفضل طريقة تشغل الفرنسيين. وما إن وقف الفرنسيون والبريطانيون فی وجه بعضهم البعض متنافسين على الحدود فی منطقة ساحل الذهب حتى أخذ ساموری تساوره الرغبة فی الحصول على السلاح من البريطانيين فقرر التحرك صوب حدود ليبيريا، ولكن الفرنسيين واصلوا مطاردته بعنف وأخذوا يهاجمون جيشه بضراوة[1]. وهنا ارتكب ساموری غلطة كبرى عندما قرر التحرك ناحية الغرب عبر الغابات الاستوائية فی فصل الأمطار حيث واجه خطر المجاعة الكبرى، وكان هذا الخطأ قاتلًا وفادحًا كلف ساموری حياته وضياع دولته، وعندما قامت القوات الفرنسية بالهجوم على قواته رفض الاستسلام وقرر الصمود حتى النهاية وواصل الحرب حتى وقع أسيرًا، وباغته أحد عملاء الفرنسيين وهو يؤدی صلاة العشاء وقطع رأسه، ولكن حركة ساموری توری لم يقض عليها بموته ١٩٠٠ إذ واصل حركة المقاومة بعده حفيده أحمد سيكوتوری الذی صار أول رئيس لجمهورية غينيا التی حصلت على استقلالها[2] ١٩٥٨.

وهكذا انتهت حركة مقاومة أفريقية إسلامية استمرت نحو عشرين عامًا ضد القوى الاستعمارية، وأصبح ساموری هو البطل القومی لغرب إفريقيا، وتحولت حملاته ضد الفرنسيين برغم عجزه أمامها أسطورة وطنية. وكانت محاولته بناء إمبراطورية تمتد من السنغال إلى «ماسنة» تشكل تهديدًا حقيقيًا لفرنسا، ولكن لسوء حظ ساموری أنه بدأ النضال من أجل نشر العقيدة وإخضاع القبائل الوثنية فی نفس الوقت الذی راحت القوى الاستعمارية تبسط نفوذها على القارة الإفريقية بعد قرارات التقسيم فی مؤتمر برلين.. كان ظهور ساموری ودعوته للجهاد وتكوين إمبراطورية إسلامية تلازمت وتواكبت مع التكالب الاستعماری على إفريقيا.

٥ـ ثورة الشيخ المحارب محمد الأمين:

كانت السنغال فی نظر فرنسا أهم المناطق فی غرب إفريقيا، وتطورت فيها السياسة الفرنسية. فی البداية عملت فرنسا على مهادنة القوى الوطنية دون الإقدام على احتلالها أو

(١) الوثنية والإسلام ـ المرجع السابق ـ ص٣٤٣.
(٢) المسلمون والغزو الأوروبی لإفريقيا ص١٧٧.

غزوها، ولكن بانتصارات القوى الوطنية تغيرت هذه السياسة كليًا واستخدمت فرنسا القوة العسكرية لإخضاع الأهالی واتخذت السنغال قاعدة للتوسع نحو المناطق الداخلية، وما استتبع ذلك لتدعيم سيطرتها والقضاء على المقاومة الوطنية فيها[1].

كان قد بدأ الغزو الفرنسی للسنغال عام ١٨٥٤، ولكن فرنسا لم تستطع فرض حمايتها على دول أعالی السنغال إلا عام ١٨٦٠ عندما نجحت فی الحصول على قواعد راسخة لعملياتها، ولم يحصل الفرنسيون على ذلك إلا بعد مشقة ومقاومة عنيدة من حاكمها الإفريقی لات ديور ديوب الذی اتبع استراتيجية المواجهة مع الفرنسيين وأصدار أوامره إلى كل رؤساء القبائل بإيقاع العقاب لكل فرد من رعاياهم يتعاون مع الفرنسيين أو يقبل العمل فی الخط الحديدی الذی كان يزمع الفرنسيون إنشاءه. وخرج لمحاربة الفرنسيين وهو عاقد العزم على أن يضحی بحياته فی سبيل ذلك اتخذاه موقعًا عند الخط فی تلك المعركة هو وولداه و ٨٠ من أنصاره، كان ذلك فی عام ١٨٨٢[2].

ويعد الشيخ محمد الأمين من أهم الشخصيات الإفريقية التی لعبت دورًا مشهودًا فی مقاومة الفرنسيين، وكان قد التقی بالحاج عمر الفوتی التكرورى فتأثر به واقتفی أثره وخطاه فی تكوين إمبراطورية على غرار إمبراطورية التكرور التی أسسها الحاج عمر.

فيما بين أعوام ١٨٦٨ـ ١٨٦٩ أدى الأمين فريضة الحج وعند عودته إلى بلاده وقع أسيرًا فی يد قوات أحمدو شيخو زعيم التكرور فمكث حوالی سبع سنوات فی أراضيه مما كان له أكبر الأثر فی توتر العلاقات بين الطرفين، وهذا ما جعل الأمين يعلن فی بداية ثورته أن جهاده موجه إلى عدوه الأول السلطان أحمدو سلطان التكرور، وأنه لا يكنّ للفرنسيين عداء، ولكن سرعان ما اكتشف الفرنسيون أن جهاده موجه ضد الوجود الفرنسی الأجنبی وأن إعلانه الجهاد ضد القوى الوثنية فی المنطقة ما هو إلا حيله لتغطية هدفه.

بدأ الصدام الحقيقی بين محمد الأمين والفرنسيين عام ١٨٨٥ عندما بدأ الأمين مراسلة المدن المجاورة وأعلن عن برنامجه الذی تلخص فی إعلان الجهاد وتطوير الجيش وتزويده بأحدث الاسلحة وتحسين علاقاته بجيرانه.

والحقيقة أن ثوره الأمين فی إقليم السنغال الأعلى كانت موجهة ضد السيطرة الأجنبية،

(١) بحوث ودراسات وثائقية فی تاريخ إفريقيا الحديث (المرجع السابق) ص٦١.
(٢) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ـ ص١٣١.

وكان شعب الإقليم بعضه خاضع لسلطة الفرنسيين والبعض الآخر للسلطان أحمدو، وكانت أشغال إقامة خطوط البرق والسكك الحديدية وظروف العمل المرهقة ومعيشتهم السيئة قد أدت إلى ارتفاع نسبة الوفيات بين العمال مما أثار حركة احتجاج لا على المذلة التى كانوا يخضعون لها فحسب بل على الوجود الأجنبى فى المنطقة. وقد ساعد ذلك الأمين على انتشار حركته وجمع حوله ضحايا هذا النظام القدامى والجدد ودعا إلى محاربة الفرنسيين، فثارت ثائرة الأهالى على الفرنسيين وحلفائهم من الإفريقين.

وفى عام ١٨٨٦ هجم الأمين على «باكل» التى كانت رمزًا للوجود الفرنسى فى المنطقة وفرض حصارًا على المدينة واحتل بقواته كل الطرق الموصلة إليها وحاصر الحصن الفرنسى واستولى على القرى المحيطة به، كما قطع طريق المواصلات لمنع وصول الإمدادات إلى الحصن. وحقق الأمين انتصارات كبيرة وألحق عدة هزائم بالفرنسيين، وعندما كانت قواته قاب قوسين أو أدنى من النصر أصيب مقر قيادته بقذيفة مدفعية دمرته تمامًا، وأعقب ذلك اضطراب شديد وفر جنوده. أدرك محمد الأمين أنه لن يستطيع بما لديه من أسلحة هزيلة أن يستولى على مواقع الفرنسيين الحصينة ومن ثمّ لجأ إلى حرب العصابات[1]، ولكن التحالف الذى كان قائمًا بين الفرنسيين والعناصر الإفريقية الموالية لهم عجل بفشل جهوده واضطر فى نهاية الأمر إلى الفرار أمام كثافة الهجمات الفرنسية وقُبض عليه وقُتل. وبموته انتهت المقاومة العنيفة التى واجهت الفرنسيين فى السنغال مما أتاح لهم فرصة العمل على تقوية مراكزهم وإعادة مواصلاتهم واتخاذ السنغال قاعدة للتوسع نحو المناطق الداخلية لسحق المقاومة الوطنية فيها.

الحقيقة أن جهاد الشيخ الأمين كان قصيرًا فى مداه عميقًا فى مغزاه قويًا فى أثره عنيفًا فى تنفيذ أهدافه. اتسم جهاده بالعنف والصلابة وقوة الإصرار على متابعة جهاده رغم وقوف الأعداد له بالمرصاد؛ لذا كان جهاده من نوع خاص وفى فترة قصيرة لم تتجاوز العامين ووسط ظروف بالغة القسوة، العدو الأجنبى يتربص به والقوى المحلية تحيك حوله المؤامرات، لكنه وسط كل هذا قاوم وناضل وحمل السلاح وأعلن الجهاد لنشر الدعوة الإسلامية رغم صعوبة الظروف، وتحدى كل من وقف فى طريقه من القوى المحلية والخارجية، وأجبر عددًا كبيرًا من الوثنيين على الدخول فى طاعته، كما انضمت إليه جماعات أخرى كثيرة وجدت فيه

(١) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ـ ص١٥٢.

مجسدًا لآمالهم ومحققًا لأهدافهم وباعثًا لشعبه فكانت حركته قومية إسلامية جهادية وصار بطلًا قوميًا لشعبه. قاوم الحكم الفرنسى الأجنبى وقاوم القوى المحلية والتوسع الفرنسى حتى يتمكن من تحقيق الهدف الذى كرس له حياته إلى أن لقى الشهادة وهو يدافع عن الدين الإسلامى، وكان من أوائل من مارسوا حرب العصابات ضد الفرنسيين حتى اشتهر بالشيخ المحارب، ورغم أن نضاله وجهاده لم يستغرقا وقتًا طويلًا إلا أن الأثر الذى تركاه كان عميقًا ليس فقط فى تاريخ هذه المنطقة بل فى غرب إفريقيا بشكل عام[1].

إن الحقيقة التى لا يمكن إنكارها أن زعماء حركات الجهاد الإسلامى رفضوا جميعًا الاستسلام للقوى الأوروبية رغم كل العروض المادية والمعنوية التى عرضها عليهم الأجانب المستعمرون وفضلوا القتال والصمود حتى النهاية. وكانت السمة الغالبة على كل الزعماء هى الصوفية وحركات الجهاد بالموت والاستشهاد الطاهر فى سبيل الله والمقاومة حتى آخر لحظة من العمر فاستشهد الخليفة محمد الطاهر فى دولة سوكوتو واستشهد الحاج عمر الفوتى ورابح فضل الله والحاج محمد الأمين.

وانتهت هذه الحركات الجهادية جميعًا بعد أن بسط الأوربيون نفوذهم على تلك المناطق الإسلامية، ولم يكن القضاء على هذه الحركات بسبب ضعف أو تقصير ولكن لأنها كانت تحارب على جبهتين جبهة محلية وثنية وجبهه خارجية أوروبية، كما كان العامل الحاسم فى القضاء على هذه الحركات نابعًا من استخدام الأسلحة الحديثة ضد القوى الإسلامية التى كانت تستخدم أسلحة تقليدية لا يمكنها أن تجارى هذه الأسلحة الأوروبية.

*****

(١) المسلمون والاستعمار الاوروبى لإفريقيا ـ المرجع السابق ـ ص١١٩.

الفصل الثالث

السودان الشرقى «سودان وادى النيل»

- الخلفية التاريخية للسودان قبل القرن التاسع عشر
- السودان بعد الفتح الإسلامى:
- ١-دولة الكنوز الإسلامية
- ٢- سلطنة الفونج الإسلامية
- ٣- سلطنة دار فور الإسلامية
- السودان فى القرن التاسع عشر:
- ١-فتح السودان
- ٢- المقاومة الوطنية (الثورة المهدية)
- السياسة الاستعمارية فى السودان :
- ١-سياسة عدم التدخل
- ٢- إخلاء السودان
- ٣- اقتسام ما كان يتبع مصر فى السودان
- مقاومة المقاومة احتلال السودان والحكم الثنائى

الخلفية التاريخية للسودان النيلى قبل القرن التاسع عشر

سودان وادى النيل لم يختص وحده بهذا الاسم إلا فى السبعينيات من القرن التاسع عشر فكلمة السودان كانت تطلق على كل مايقع بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسى فالمغاربة مثلاً السودان بالنسبة لهم مالى والنيجر وماجاورها من البلاد،والسودان عند المصريين هو كل ماجاء جنوب مصر ،والسودان عند السواحيليين هو ما يضم الصومال واثيوبيا والدويلات التى قامت فى هذه المنطقة . ولم يأخذ السودان اسمه الحالى إلابعد الفتح المصرى عندما أطلقه الخديوى إسماعيل على الأرض التى ألحقت بمصر .وكما يقول د. حسن مكى إن اسم السودان كمصطلح هو بقاعٍ لصناعة مصرية بعد عام ١٨٧٤[1]. لم يكن السودان الشرقى أو سودان وادى النيل مجهولا للعرب قبل الإسلام. كانت التجارة بين الجزيرة العربية والشاطئ الشرقى الافريقى ومنه إلى السودان وطيدة.وكانت هناك مملكتان مسيحيتان هى «مملكة مقرة أو دنقله أو النوبة» فى شمال السودان ومملكة علوة فى وسطه.وقد استمرت هاتان المملكتان تحكمان السودان قرابة ألف عام من القرن السادس إلى القرن السادس عشر. ظلت هذه الممالك تقف فى وجه انتشار الاسلام،وأمام جهود العرب للدخول إلى السودان النيلى.بدأت المواجهة الأولى بين العرب والمسلمين وهذه الدول المسيحية فى وقت مبكر حين حاول عمرو بن العاص فتح بلاد النوبا عام ٢٠هـ -٦٤١م،ولكنه لم يتمكن من فتحها وانتهى الأمر بصلح مع أهلها كان أشبه بمعاهدة اقتصادية ولما نقض النوبيون هذا الصلح وأغاروا على صعيد مصر غزاهم عبد الله بن سعد بن أبى السرح عام ٣١ هـ ـ ٦٥٢ م ووصل حتى دنقله عاصمة «مقرة» المسيحية وعقد صلحاً عرف باسم معاهدة البقط.لم تكن المعاهدة تعكس تبعية (مقرة)لمصر وإنما كانت فى حقيقتها تأمينًا للنواحى الاقتصادية والتجارة والدينية وتشجيعًا للتبادل التجارى وإقرار السلام على الحدود المشتركة.وظلت المعاهدة سارية فى آثارها أكثر من ٦٠٠ سنة، فتحت معاهدة البقط

(١) ندوة عن دارفور بمعهد الدراسات الإفريقية بالقاهرة ـ ورقة د. حسن مكى.

الباب أمام الهجرات العربية لاجتياز مملكة «مقرة» إلى وسط السودان النيلى وما عرف بإسم ممكلة «علوة»، وأصبح الباب مفتوحًا للإسلام والثقافة العربية للتوغل وسط السودان وحتى حدود الحبشة الشمالية دون انتظار لسقوط مملكة «مقرة» المسيحية، وقد سمحت قبائل البجه فى شرق السودان للهجرات العربية بالاستقرار والإقامة فيها بعد حدود مصر الجنوبية وحتى مصوع.واستفاد العرب من نظام الوراثة عن طريق الأم فحرص رؤساؤهم على التزوج من بنات البجه والنوبة مما أدى إلى انتقال السلطة إلى العرب الذين استطاعوا أن يقيموا أول إمارة إسلامية عربية كان مقرها أسوان فى عهد الخلافة الفاطمية،ولقب أميرها بكنز الدولة وأهلها ببنى كنز،وتصاهر هؤلاء مع البيت المالك النوبى فى «مقرة» وبذلك انتقل الحكم إلى بنى كنز وقامت أول دولة عربية إسلامية فى هذا الجزء من السودان النيلى عرفت باسم سلطنة الكنوز الإسلامية فى بلاد النوبة. كما:قامت بعد ذلك سلطنات إسلامية أخرى فى وسط هذا السودان تعرف بسلطنة الفونج الإسلامية وسلطنة عربية ثالثة فى الغرب تعرف ياسم سلطنة دارفور[1]

١-دولة الكنوز الإسلامية فى بلاد النوبة

٧٢٣-٩٢٦ هـ/ ١٣٢٣-١٥٢٠م

أقام هذه الدولة فى بلاد النوبة الشمالية التى تمتد إلى جنوب «دنقله» أو «مقرة» عرب الكنوز،واتسعت حدودها حتى أصبحت تضم صعيد مصر الجنوبى من قوص ألى اسوان، وكما ضمت جزءاً كبيراً من بلاد النوبة الشمالية حتى جنوب وادى حلفاً ووادى العلاقى فى الصحراء الشرقية.ورغم ازدياد نفوذ بنى كنز فإنهم لم يتمكنوا من تكوين دولة مستقلة عن مصر،وظلوا يناوئون حكام مصر حتى جاء صلاح الدين الأيوبى فأرسل إليهم حملة انتهت بمقتل أميرها كنز الدولة والقضاء على معظم جنده،قدر من قتل بثمانين ألف مما أدى إلى خراب هذه المنطقة من صعيد مصر، وقد حددت هذه الضربة مصير«بنى كنز» فتركوا إمارتهم فى أسوان ونزحوا جنوبًا وتوغلوا فى مملكة النوبة الشمالية. تمتع «بنوكنز» بفترة سلام طويلة عقب وفاة صلاح الدين الأيوبى حتى استطاعوا أن يقيموا إمارتهم الثانية فى بلاد النوبة وليس فى وادى العلاقى أو أسوان كما حدث من قبل.وبالطبع لم يقبل سلاطين المماليك الجدد قيام حكم عربى مجاور لهم فى بلاد النوبة،وثار بين الطرفين صراع كبير امتد من صعيد مصر إلى بلاد النوبة. أرسل المماليك جيشًا لغزو مملكة «مقرة» المسيحية عقابًا لها على اعتداءات ملوكها على

(١) الموسوعة الإفريقية ـ المرجع السابق ـ ص٢٢٣ـ ٢٢٦.

صعيد مصر وقيامهم بالسلب والنهب والتدمير والقتل دعمًا للنشاط الصليبى المسيحى الذى كان يهدد مصر فى ذلك الحين.

أرسل المماليك الحملة تلو الحملة إلى مملكة «مقرة» وتمكنت الحملة الأخيرة من تعيين ملك نوبى مسلم على عرش دنقله عاصمة «مقرة» وأقسم الملك الجديد يمين الولاء لسلطان مصر، ولكن لم يقبل كنز الدولة بتعيين هذا الملك النوبى المسلم ورأى أنه أولى بهذا الكرسى، فأرسل حملة إلى النوبة واسترد عرشها ولم يجد الحاكم المصرى (الناصر محمد) مفرًّا من الاعتراف به ملكًاعلى دنقله،وكان ذلك نقطة تحول خطيرة فى تاريخ هذه البلاد أدت إلى سقوط مملكة (مقرة)النوبية المسيحية وقيام دولة بنى كنز الاسلامية المستقلة. وقد ظل بنوكنز ملوكًا على بلاد النوبة وأصحاب السلطة الفعلية أيضًا على جزء كبير من أقاصى الصعيد حتى الفتح العثمانى لمصر ٩٢٣هـ -١٥١٧م . كان استقلال سلاطين بنى كنز فى دنقله عن سلاطين مصر تامًّا أو شبه تام،وأصبحت مملكة النوبة العربية الإسلامية مملكة مستقلة تمامًا، ولكن عوامل داخلية وخارجية أدت إلى ضعف بنى كنز والقضاء عليهم نهائيًا ومن هذه العوامل الصراع على السلطة الذى قام داخل الأسرة الكنزية الحاكمة، وأتاح هذا الصراع الفرصة لسلاطين المماليك كى يتدخلوا فى شئون دولة بنى كنز الداخلية ويعملوا على إضعافها؛ يضاف إلى ذلك منافسة القبائل العربية التى هاجرت إلى أسوان والنوبة ومنازعتهم لبنى كنز فى النفوذ والسلطان،وجاءت الضربة القاضية لدولة بنى كنز على يد الأتراك العثمانيين،فبعد أن فتح العثمانيون مصر أرادوا أن يدعموا نفوذهم فى بلاد الصعيد والنوبة،فأرسل السلطان سليم الأول عام ١٥٢٠ حملة لفتح هذه البلاد، ونجح القائد العثمانى فى انزال الهزيمة ببنى كنز، وحاول الفونج حكام سنار أن يضموا هذه البلاد إلى حكمهم وأرسلوا جيشًا لتحقيق هذا الهدف ولكنهم هزموا وانسحب القونج إلى بلادهم فى وسط السودان ولم يعد لبنى كنز دولة منذ ذلك التاريخ،وإن ظل وجودهم كقبائل ومشيخات مستمرًّا حتى تم فتح هذه البلاد على يد إسماعيل بن محمد على باشا عام ١٢٣٦هـ- ١٨٢٠م. ثم ظهر السودان بشكلة السياسى الذى نراه الآن[1]

٢ـ سلطنة الفونج الاسلامية فى سنار

٩١٠-١٢٣٦هـ/ ١٥٠٥-١٨٢٠م

ظهرت نواة إمارة الفونج بعد انتهاء القرن ١٣م عقب القضاء على مملكة «مقره»

(١) الموسوعة الإفريقية ـ المرجع السابق ـ ص٢٢٦ـ ٢٣٨.

المسيحية،وتسرب العرب على نطاق واسع إلى مملكة «علوة» المسيحية واتسع نطاق الإمارة غربًا ووصل إلى أطراف منطقة الجزيرة وأملاك «علوة» فى الشرق، واستطاعت هذه الإمارة القضاء على مملكة «علوة» المسيحية عام ١٥٠٥م، وأقامت مملكة العبدلاب التى سيطرت على القسم الشمالى من البلاد وامتد ملكها حتى بلاد دنقله،ولكنها كانت تدين بطاعة اسمية إلى سلطنة الفونج ثم استقلت عنها عام ١٧٧٠م ـ حينما ضعف الفونج ـ . قامت مملكة الفونج الإسلامية واتخذت مدينة سنار عاصمة لها، وامتد نفوذها من النيل الأزرق إلى النيل الأبيض بما يضمان أرض الجزيرة، وامتد نفوذها الاسمى على البلاد حتى دنقله. بلغت هذه السلطنة أوج مجدها طيلة القرن ١٨ إذ امتدت رقعتها من الشلال الثالث إلى النيل الأزرق ومن البحر الأحمر إلى كردفان،غير أنه قبيل نهاية ذلك القرن ظهرت عوامل الضعف فى السلطنة عندما دب الخلاف بين الأسرة الحاكمة واستبداد الوزراء والقواد، وبدأت الانقسامات الداخلية والحروب الأهلية تزيد فى انحلال الأسرة الحاكمة حتى ابتلعهم الفتح المصرى فى النصف الأول من القرن ١٩ فى عهد محمد على، وقد ظهرت هذه الدولة أول ماظهرت فى مظهر إسلامى واضح، واستهلت حياتها الاولى بالمساهمة فى حركة الجهاد الإسلامى بمشاركة العرب.المسلمين فى القضاء على مملكة «علوه» المسيحية، وبذلك تدفق الإسلام فى وسط السودان ومنه إلى الجنوب والغرب، كما شارك الفونج فى حركة الجهاد فى شرق إفريقيا حينما شاركوا أحمد القرين فى حركة جهاده فى بلاد الحبشة، وأسهموا فى محاربة الوثنيين فى داخل السودان نفسه وحاربوا أهل جبال النوبا بسبب إغاراتهم على كردفان،واستمروا فى حربهم زمنًا طويلًا حتى انتشر الإسلام فى حركة الجهاد الاسلامى ضد الأحباش فى القرن ١٨ لم يسهم الفونج فى نشر الاسلام عن طريق الجهاد فقط وإنما استعانوا بالوسائل السلمية،فقد كان لسلطنة الفونج اتصال بدارفور وبالباشا التركى فى موانى البحر الأحمر فى سواكن ومصوع،واتصلوا كذلك باليمن وغيره من الأقطار الإسلامية،وكانت العاصمة سنار المركز العلمى الذى تطلعت إليه جميع مناطق السودان النيلى شرقًا وغربًا، وكان العلماء من المناطق النائية يرحلون إلى ملوك الفونج وزعمائهم ويعيشون إلى جوارهم وينالون الإقطاعيات الواسعة مما دفع الحركة الإسلامية دفعة كبيرة فى عهد هذه السلطنة[1]

سلطنة دار فور الإسلامية

٨٤٩-١٢٩٢هـ/ ١٤٤٥-١٨٧٥م

بلاد دار فور عبارة عن هضبة تنتشر فيها المراعى تتخللها بعض المرتفعات ويتألف سكانها

(١) الموسوعة الإفريقية ـ المرجع السابق ـ ٢٣٩.

من العنصر الزنجى،وفى القرن ١٢م دخل هذه البلاد عنصر مغربى ربما كانوا من المغاربة الذين تركوا بلادهم هربًا من غارات بنى هلال فى شمال إفريقيا.وقد تزاوج هؤلاء مع أهالى البلاد وصاهروهم ونتج من هذا الاختلاط جنس مختلط يُسمى شعب (الفور) كان أول سلاطينها المولدين أحمد المعقور الذى تزوج من ابنة ملك دافور الوثنى الذى عينه خليفة له،وورثه المعقور وأسس أول سلطنة إسلامية فى دارفور.على أن دارفور لم تدخل الإسلام إلا فى عهد أحد ملوكها هو سليمان سولون الذى جاء من سلاسة أحد الهجرات العربية التى وفدت إلى دارفور منحدره من وادى النيل فى القرن ١٥م. اعتلى سليمان سولون عرش دار فور١٤٤٥-١٤٧٦،فتح البلاد للهجرات العربية فانتشر الإسلام فى ركاب هؤلاء العرب المهاجرين إلى دارفور واصطبغت السلطنة بالصبغة الإسلامية. أخذت السلطنة تتسع فامتد سلطانها على كردفان وبلغت اقصى اتساعها فى عهد سلطانها تيراب ١٧٧٨-١٧٩٩ الذى نقل العاصمة إلى الفاشر،واتصل بالسلطان العثمانى واعترف بسيادته فمنحه السلطان لقب الرشيد،وامتد نفوذ السلطنة إلى مملكة وادى،وكان من الممكن أن تتسع أكثر لولا التوسع المصرى الذى ضم دارفورإلى الممتلكات المصرية عام ١٨٧٤، ولكن هذا الإلحاق بالسودان، لم يدم طويلًا لأنه بعد الثورة المهدية انفصلت دارفور عن السودان،ولم يستمر هذا الانفصال سوى ١٧ سنه اذا قرر الإنجليز إنهاء هذه السلطنة واستعانوا بالقبائل العربية هناك وسلحوهم واستخدم كذلك سلاح الجو البريطانى حتى تم الاستيلاء على سلطنة دارفور وأدمجت فى إطارالسودان مرة أخرى عام ١٩١٦م[1].

السودان فى القرن التاسع عشر

(١) فتح السودان

منذ القرن السادس عشر كان للدولة العثمانية حقوق فى السيادة على السودان وعلى الحبشة،واتسعت هذه السيادة وتدعمت عندما بدأ المصريون فتوحاتهم السودانيه باسم السلطان العثمانى فى مطلع القرن ١٩،وكان من عوامل إرسال الحملات المصرية هو رغبة أهل السودان أنفسهم إنشاء حكومة قوية على يد مصر تقضى على أسباب الفوضى المنتشرة فى بلادهم،فدخلت أقاليم النوبا وسنار وكردفان طوعًا فى حوزة مصر ١٨٢٠-١٨٢٣، ومن هذا التاريخ بدأ تأسيس وحده وادى النيل السياسية،كما بدأ بسط السيادة على الوادى بأسره وتقرير حقوق السيادة هذه لمصر[2].

طلب محمد على باشا والى مصر من السلطان العثمانى إن يأذن له فى فتح السودان،ووافق

(١) الموسوعة الافريقية ـ المرجع السابق ـ ص٢٤٣.

(٢) مصر والسودان ـ تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر / د. محمد فؤاد شكرى/ مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ص٧ـ٨.

السلطان العثمانى محمود الثانى أن يفتح محمد على مايشاء من اقاليم السودان شريطة أن يحدث هذا باسم السلطان العثمانى.وعندما بدأت العلاقات بين محمد على ومحمود الثانى سلطان تركيا تسوء، وتدخلت الدول الأوروبية لإنهاء هذا النزاع المصرى العثمانى كان البت فى مصير السودان أهم الموضوعات التى شغلت محمد على وكان صوت وحدة وادى النيل السياسية كل ماعنى به الحاكم المصرى فى هذه الأزمة.فقد كان محمد على يعتبر الأقطار السودانية جزءًا من الأقطار المصرية تسرى فيها جميعًا نظم واحدة ويجرى الإنفاق عليها من خزينة واحدة. ومن الثابت أن مصرعلى أيامه أنفقت بسخاء على السودان وإنعاش الحياة الاقتصادية به وتعليم وابنائه وتدريبهم على حكم انفسهم بانفسهم مما سماه المعاصرون الأجانب الذين زاروا السودان فى ذلك الحين مبدأ إشراك العناصر الوطنية فى شئون الحكم والإدارة أى أن السودان شهد العمل بما صار يعرف باسم (السودنة)فى الاصطلاح الحديث

لذلك عندما شرعت الدول تعمل لوضع تسوية للمسألة المصرية ١٨٤٠-١٨٤١ كان من أركان التسوية الفرمان الصادر فى ١٣ فبراير ١٨٤١ م الذى أعطى محمد على ـ مدى الحياة ـ حكومة النوبة وسنار وكردفان ودارفور وجميع ملحقاتها،فكان هذا الفرمان الوثيقة الأولى التى دعمت حقوق مصر فى السيادة على شطر الوادى الجنوبى وبموافقة الدول.

كان محمد على مؤسس مصر الحديثة يطمع فى توسيع رقعة مصر،وبما أن مصر تحدّها الصحراء من الشرق والغرب فكان جنوب البلاد هو الرقعة التى وقع عليها اختيار محمد على أن يتوسع فيها.وفى عام ١٨١٠ غادر جيشه بقيادة أحد أبنائه باتجاه السودان، ولم يستطع رؤساء الإمارت المحليون مواجهة فرق الوالى،وهكذا فى غضون سنة واحدة تم الاستيلاء على كل المنطقةوالحقت بمصر التى كانت رسميًا ولاية من ولايات الدولة العثمانية،ولهذا السبب تُسمى هذه الفقرة من تاريخ السودان بالفترة التركية.

اتصف النظام الذى أسسه محمد على فى السودان بجباية قاسية للضرائب الثقيلة مما عمق الكراهية فى قلوب السودانيين ودفعهم فيما بعد إلى دعم الثورة المهدية.وتعزز هذا الشعور عندما عين موظفين أوروبيين ومسيحيين عاثوا فسادًا فى الأقاليم بحجة محاربة تجارة الرقيق، وأصبحت السيطرة على السودان عبئًا مما جعل ابنه الخديوسعيد ١٨٥٤-١٨٦٣ يفكر فى التخلص منه.

وازدهرت تجارة الرقيق فى ظل حكم حفيد محمد على الخديو إسماعيل الذى غلبت

طموحاته فى السودان على طموحات جده فأرسل الحملات العسكرية إلى دارفور، وضم مقاطعتين فى جنوب السودان هما بحر الغزال والمقاطعة الاستوائية،ولكن هذه الحملات أخفقت وقام أحد تجارالعبيد «الزبير رحمة منصور» فى بحر الغزال بشق عصا الطاعة فاضطر الخديو إسماعيل للخضوع للأمر الواقع ووافق عام ١٨٧٣ على تعيين الزبير حاكمًا لهذة المنطقة. أما المنطقة الاستوائية فقد عهد إسماعيل للسير صمويل بيكر الإنجليزى بالقيام بحملة للاستيلاء عليها وضمها لمصر.وتولى بعد صمويل بيكر جورج غوردون الذى أصبح حاكمًا للمقاطعة الإستوائية عام ١٨٧٤ثم صار حاكمًا عامًا على كل السودان ١٨٧٧ وكان الخديو إسماعيل فى هذا التوسع يعمل لحساب الإنجليز ويستعين بقيادات منهم تقود جيشه المصرى وسلم لهم إدارة السودان.وسع غوردون مساحة المنطقة الخاضعة للحكم المصرى حتى وصل إلى منطقة تبعد مسافة ١٠٠كيلومتر من بحيرة فكتوريا،وكان غوردون يعتقد أن جنوب السودان لايمكنه أن يتطور الا إذا ارتبط بالمحيط الهندى،ونزولًا على رغبته نظم الخديو حملة نحو مباسا على الساحل الشرقى لإفريقيا، ولكنها منيت بالفشل لأن الحكومة دافعت عن السلطان زنجبار ضد طموحات خديو مصر[١].

عزل إسماعيل عام ١٨٧٩ ونفى بعد إعساره المالى،وتفاقمت حركات التمرد فى كردفان ودارفوربسبب سوء الأوضاع الاقتصادية ونفور المواطنين من الحكام الأوربيين الذين ولاهم خديو مصر.وهكذا كان الوضع فى السودان عندما ظهر الزعيم الروحى محمد أحمد المهدى فى جزيرة أبا عام ١٨٨١.

(٢) المقاومة الوطنية (الثورة المهدية)

كانت حركة المهدى التى تعرف باسم الثورة المهدية معركة نضال ثورية أساسها جهاد وحرب مقدسة منذ الحكم التركى الذى ولى عليهم أجانب مسيحيين، ثم تطورت الحركة من حركة احتجاج دينى إلى دولة قوية مناضلة سيطرت على السودان مدة أربعة عشر عامًا. كما كان من أسباب الثورة المهدية أيضًا عوامل نجمت عن أخطاء الإدارة الخديوية التى ولدت شعورًا عامًا بالاستياء أدى إلى خلق رغبة الإنتقام،وأدت الضرائب الباهظة التى فرضها عمال الخديو وقاموا بجمعها بالقوة إلى خلق شعور عام بالسخط بالإضافة إلى محاولات الحكومة قمع تجارة الرقيق إلى إثارة عداءبعض السودانيين فى المنطقة الشمالية لأن هذا القمع كان يمثل ضربة إلى

(١) تقسيم إفريقيا ـ المرجع السابق ـ ص١٠١.

مصدر هام للثروة وأساس الاقتصاد المنزلى والزراعى فى البلاد بالإضافة إلى ضعف الحكومة المركزية فى مقر الخديوية ذاتها فى القاهرة.

عند مجىء الحكم الخديوى فى مصر إلى السودان كان المجتمع السودانى إقطاعًا تتوزع فيه الأرض والسلطة بين عدد من السلاطيين والرؤساء والزعماء لايربط بينهم أى رابط ومع أن الملوك الفونج استطاعوا تأسيس مملكة سنار،وكذلك فعل سلاطين الفور فى دارفور من أواخر القرن ١٥واوائل القرن ١٦إلا أن سيطرة هؤلاء السلاطين على الرؤساء والزعماء المجاورين لهم كانت ضعيفة،وظل هذا تشكيل المجتمع السودانى حتى الفتح المصرى.

وعندما جاء المصريون إلى السودان أدخلوا تغييرات كبيرة على أنظمة الحكم،فأنشأوا جهازًا للحكم والإدارة يقوم على مركزية تجمع السلطنة فى يد حكومة الخرطوم ومعنى هذا إنهاء الزعامات المحلية،وأنشأوا نظامًا ضريبيًا تحددت بمقتضاه فئات الضرائب التى فرضت على الأرض وطرق جبايتها.

وبالنسبة لإلغاء الرق، فإن الخديوية تحت الضغط السياسى من الخارج خصوصًا بريطانيا، استبدلت بدلًا من الأسلوب البطىء فى معالجة مسألة الرق وتجارة الرقيق سياسة الإلغاء العنيفة للقضاء عليه بالحديد والنار مما أدى إلى انتشار التذمر والسخط بين تجار الرقيق وانضم هذا العامل إلى سخط سواد الشعب الذى أثقل كاهله عبء الضرائب الجائرة؛ الأمر الذى جعل هذا التذمر والسخط عظيم الخطر على النظام القائم،وصار لدى الأهالى وتجار الرقيق رغبة واحدة هى طرد الحكم الخديوى المصرى من السودان.

مهدت الثورة العرابية فى مصر (سبتمبر١٨٨١) لقيام الثورة المهدية فى السودان؛ وذلك أن الثورة العرابية جعلت من المتعذر على حكومة مصر توجيه عنايتها بشئون السودان أو إرسال نجدات عسكرية إلى قوات الحكومة السودانية لصد اتباع محمد أحمد المهدى فى جزيرة آبا،وكان لذلك أثر بالغ على انتشار ثورة المهدى فى السودان،وانتقلت من حركة تذمر إلى ثورة عارمة ومسألة خطيرة تتطلب التفرغ لعلاجها بسرعة وحزم وقوة للإبقاء على وحدة وادى النيل والمحافظة على السودان، وهذه المشكلة كانت أولى المشكلات التى واجهها الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٢.

السياسة البريطانية فى السودان

سلكت السياسة البريطانية فى السودان ثلاثة وجوه هى: أولًا عدم التدخل، ثم الضغط على مصر لإخلاء السودان، وثالثًا استرجاع السودان بالقوة واحتلاله.

الوجه الأول (سياسة عدم التدخل):

كان موقف الحكومة البريطانية فى البداية هو عدم التدخل فى السودان،وأن يُترك للحكومة المصرية «بقدر الإمكان» أن تتخذ وحدها الإجراءات التى تراها ضرورية لإخماء الثورة فى السودان بدون مساعدة أو مشاورة حكومة صاحبة الجلاله فلا يجب أن تتدخل الحكومة البريطانية فى هذه المسألة أو تتحمل بسببها أية مسئولية حتى إذا اتضح فى المستقبل أن الإجراءات التى اتخذت بناء على مشورتها لم تكن مجدية لاتجد إنجلترا نفسها مسوقه إلى القيام بعمليات عسكرية فى السودان، ومع ذلك لم يكن هناك مناص من أن يعترف الأحتلال البريطانى فى مصر بوجود مشكلة سودانية لابد من مواجهتها سريعًا، وأن علاج الموقف يقتضى الاحتفاظ بقسم من الأقاليم السودانية والتخلى عن قسم آخر، فقد كان واضحًا أن الاحتفاظ بكل ممتلكات مصر فى السودان يحتاج إلى تجهيز إمدادات عسكرية تُرسل إلى السودان للمعاونة على إخماد الثورة.كما كان واضحًا أيضًا أنه اذا تعثر وجود القوات العسكرية التى تكفى للمحافظة على كل أقاليم السودان فلا أقل من أن تتمسك حكومة الخديوية ببعض الأقاليم وتدافع عنها وهى أقاليم وسط السودان لإبعاد الخطر عن الحدود المصرية ذاتها.

كان رأى البريطانيين أن تتخلى الحكومة المصرية عن مديريات فاشوده وكردفان ودارفور، وفيما يتعلق بمديرية بحر الغزال وخط الاستواء أن يُكتفى بدلًا من الإدارات الحكومية بوكالة تجارية، وعدم إرسال أية حملات ضد المهدى فى كردفان ولكن لم يكن فى وسع الحكومة البريطانية إقناع المصريين بالتخلى عن اجزاء من السودان.وأرسلت مصر حملة بقيادة الكولونيل هيكس إلى الخرطوم للعمل على إخماد الثورة فى سنار وإقصاء الثوار فيها واتخاذ التدابير التى يمكن بها وقاية الخرطوم وتنظيم الدفاع عنها ضد المهديين،وأوقع هيكس بثوار سنار هزيمة بالغة، وشجع هذا الانتصار حكومة الخديوى فى القاهرة الدخول فى عمليات عسكرية على نطاق واسع ضد الثورة، وإرسال حملة كبيرة لمطاردة المهدى فى كروفان بالرغم من أن هذه الحملات كانت تتكلف نفقات طائلة ولا يوجد المال اللازم لها، كما كانت تحتاج إلى جيش مدرب ومزود بالمؤن والذخيرة والأسلحة ولا يوجد مثل هذا الجيش فى السودان.

لم تحاول الحكومة البريطانية بما لديها من سلطة الاحتلال أن تثنى المسئولين المصريين عن عزمهم مع إدركها أن إمكانيات أو عوامل النجاح غير متوفرة، أو تحول دون إرسال الحملة إلى كردفان تلك الحملة المشؤومة التى أبيدت عن آخرها وترتب على ابادتها انتشار الثورة فى

كل انحاء السودان[1]. خرجت حملة هيكس المكونة من ثمانية آلاف مقاتل من السودانيين والمصريين من الخرطوم وتعقبها جواسيس المهديين فى حين غادر المهدى الأبيض للقاء الحملة فى شيكان،كان التعب والجوع والخوف والعطش قد أنهك قوى جيش هيكس برمته، وفوجئ هيكس برمته، وفوجئ هيكس بأنصار المهدى يحيطون به من كل جانب فانهزم وأبيد جيشه ولقى هيكس حتفه ولم ينج إلا ملازمان ونحو ثلاثمائة جندى اختبأوا بين الأشجار وسجل انتصار شيكان كسبًا عظيماً للمهدى وثورته. كان لهزيمة هيكس فى واقعة شيكان١٨٨٣ تأثير فاصل على الموقف فى السوادن فقد نتج عنها أن صار المهدى يتمتع بالسيطرة التامة جنوب الخرطوم وانضم إليه ألوف السودانيين الذين كانوا يترددون قبل هذا النصر فى قبول دعوته والإيمان به ثم وجه المهدى ضربته الثانية فى السودان الشرقى بقيادة عثمان دقنه الذى أحرز انتصارات عديدة ضد قوات الحكومة وأصبح يهدد موانى البحر الأحمر التى كان الإنجليز قد تعهدوا بالدفاع عنها، حاول البريطانيون ان يتدخلوا ولكنهم لم يحققوا نجاحًا يذكر، وأصبح الأنصار التابعون للمهدى يسيطرون على السودان الشرقى برمته باستثناء ميناء سواكن، ومنعوا مرور الإمدادات والتعزيزات المرسلة من مصر إلى الخرطوم عن طريق بربر ـ سواكن[2].

الوجة الثانى للسياسة الريطانية «إخلاء السودان»

كشفت هزيمة هيكس عن موضع الضعف فى سياسة الحكومة البريطانية نحو مسألة السودانية بالابتعاد عن التدخل فى شئون السودان والابتعاد عن تحمل أية مسئوليات تترتب على القرارات التى تتخذها الحكومة المصرية لاخماد الثورة المهدية واسترجاع نفوذها المفقود فى السودان،والامتناع عن إرسال جنود بريطانيين لنجدة القوات المصرية فى الحاميات المبعثرة وكيف أسفرت هذه السياسة عن هزيمة هيكس وإبادة جيشه فى غابة شيكان،وأدت هذه الحقيقة إلى تغير فى موقف الحكومة البريطانية ولم يعد فى وسعها أن تتخذ موقفًا سلبيًا ليس من السودان وحده بل ومن مصر أيضًا، فبعد ما كانت تدّعى الانسحاب من مصر لم تلبث أن أعلنت أنه توافرت عوامل عديدة لإطالة الاحتلال فى مصر إلى أجل غير مسمى، وكان استمرار ثورة المهدى وسيطرة الدراويش فى السودان وتهديدهم لحدود مصر الجنوبية من الاسباب التى تذرع بها الإنجليز لبقاء الاحتلال وأنه لامناص من التدخل فى شئون السودان[3].

(١) مصر والسودان ـ المرجع السابق ـ ص٢٩٠.
(٢) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ـ ص٩٣.
(٣) مصر والسودان ـ المرجع السابق ـ ص٢٩٩.

اتخذ«التدخل» وهى المرحلة الثانية من مراحل السياسة البريطانية بأن أوصت الحكومة المصرية بالتخلى عن السودان فى حدود معينة، وكان المطلوب من مصر أن تتخلى عن البلاد الواقعة إلى الجنوب من وادى حلفا، ولكن سياسة التخلى عن السودان كانت تتعارض تعارضًا تاماً مع سياسة الحكومة المصرية التى لم تكن تفكر بحال من الاحوال عن التخلى عن هذه الأقاليم أو إخلائها.

ولكن بهزيمة هيكس قررت الحكومة المصرية أن تجلى الحاميات من دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء وتنسحب جميعًا إلى الخرطوم لتقوية حاميتها هناك، وأن تبقى فى سنار مؤقتًا الحامية الموجودة بها حتى يمكن امداد الخرطوم بالمؤن من سنار، وأن يعاد فتح الطريق بين بربروسواكن بالرغم من أن القوات المصرية نالت هزائم من أنصار المهدى فى السودان الشرقى حتى باتت سواكن نفسها مهدده بالسقوط فى أيدى دراويش المهدى.

ولكن الحكومة البريطانية رفضت ذلك وأبرقت إلى الحكومة المصرية بضرورة التخلى عن البلاد الواقعة جنوب وادى حلفا، وأكدت البرقية رغبة بريطانيا أن يستتب الأمن والنظام فى مصر،والدفاع عن مصر ضد أى اعتداءات خارجية عليها،ثم حماية موانيها على البحر الأحمر.

اعترض رئيس وزراء مصر شريف باشا على ذلك وقرر الأحتفاظ بحوض النيل حتى الخرطوم، وقبل التخلى عن الموانى الواقعة على البحر الأحمر باعتبار أن هذه الموانى إنما يهم أمرها بريطانيا أكثر مما يهم المصريين، واعتبر شريف أن سياسة الإخلاء (أو التخلى عن السودان) يعرض الحدود المصرية لهجوم الدراويش، وسوف يتطلب الدفاع عن هذه الحدود أن يزيد البريطانيون عدد جنود الاحتلال فى مصر،وطالما بقيت حدود مصر معرضة لهذا الهجوم ولا أمل بعد التخلى عن السودان فى القضاء على قوة المهدية فإن الإحتلال البريطانى سوف يبقى.كان واضحاً أن شريف باشا وسواد المصريين يرون فى التخلى عن السودان فخًا ينصبه البريطانيون ليجعلوا احتلالهم لمصر ذاتها أبديًا.

أصر رئيس الوزراء المصرى على موقفه وقدم استقالته لخديو مصر الخديو توفيق فقبلها على الفور قائلًا «إنه يقبل بإخلاص سياسة التخلى عن السودان بأسره؛ الأمر الذى يعتقد بعد تفكير عميق أنه خير ما يكون لصالح البلاد، وأنه يثق تمامًا فى أن أى نصيحة تسديها جلالة ملكة إنجلترا إنما هى لصالح مصر الخالص» وكلف نوبار باشا بتأليف الوزارة الذى ارتضى بسياسة التخلى عن السودان واستبقاء سواكن.

وبتشكيل وزارة نوبار على أساس فكرة الجلاء عن السودان يكون قد انقضى فى يناير ١٨٨٤ دور السياسة السلبية التى اتبعتها بريطانيا فى مسألة السودان.فقد أرغمتها هزيمة هيكس فى شيكان أن تنبذ سياستها السلبية وأن تتدخل تدخلًا فعليًا ولما كانت الحكومة البريطانية ممتنعة عن استخدام جنود بريطانيين أو هنود لمعاونة المصريين على الاحتفاظ بالخرطوم والأقاليم التى لاتزال فى حوزتهم،فقد تمثل التدخل أو«الدور الإيجابى» الذى قررته الحكومة البريطانيةفى إسداء النصيحة إلى الحكومة المصرية بإخلاء السودان. وكانت سياسة التخلى تقتضى إخلاء الخرطوم من الحامية التى فيها ثم سحب الحاميات المصرية المبعثرة فى السودان. وتلك كانت مهمة شاقة من حيث ترتيب عملية الإخلاء من اختيار الطريق المناسب للانسحاب،وتأمين المواصلات وتوفير المؤن وحراسة المنسحبين،وعهد بهذه العمليات للجنرال غوردون.

عندما علم المهدى بقرار الحكومة المصرية بإخلاء السودان وأن تصبح حدوده منكمشة فى الجنوب إلى وادى حلفا أخذ يدعو للانضمام اليه الذين لم يرغبوا أصلًا فى الإنضمام إلى الثورة،فقد جعلهم الخوف من التعرض لغضب المهديين بعد انسحاب مصر يبادرون إلى الانضواء تحت لوائه.

الخطأ فى تقدير حقيقة الثورة:

أخطأ غوردون فى فهم حقيقة الثورة فى السودان،كما أخطأ فى تقدير قوة الثورة والاستهانة بها؛ الأمر الذى جعله يفشل فى مهمته التى انتهت بقتله.حاصر الدراويش الخرطوم وقطعوا كل اتصال لها بالخارج حتى عجز غوردون عن توصيل اخباره إلى حكومته،واستمر هذا الحصار الشديد طيلة خمسة أشهر وفى ٢٥ يناير ١٨٨٥ هاجم الدراويش الخرطوم وسقطت العاصمة فى أيديهم،واستمر اقتتال راح ضحيته٣٥ ألف من أهالى الخرطوم، وكان من بين القتلى الجنرال غوردون نفسه.بعد مقتل غوردون وسقوط الخرطوم قررت الحكومة البريطانية إبطال كل العمليات العسكرية فى السودان والانسحاب من هذه البلاد نهائيًا بعد أن تأكدت من أن استمرار العمليات العسكرية بعد سقوط الخرطوم ـ صارت منهارة ولكن سرعان ماتُوفى المهدى بصورة مفاجئة بعد أشهر قليلة من ٢٥ مايو ١٨٨٥، ويمكن القول إن فترة المهدى أو السنوات الأربعة الأولى للثورة من ١٨٨١ إلى ١٨٨٥ تطورت الحركة المهدية من حركة احتجاج دينى إلى دولة قوية مناضلة سيطرت على السودان لمدة ١٤ عامًا.

أدى سقوط الخرطوم إلى ضياع سائر ماكانت تسيطر عليه مصر فى السودان باخلائها

والجلاء عنها ووقعت فى يد المهديين والدول الأجنبية المتنافسة المتسابقة على امتلاك إفريقيا واقتسامها فيما بينها، ففقدت مصر سيطرتها فى بحر الغزال وسنار ودارفور وخط الاستواء،وفى شرق السودان وفى ساحل البحر الأحمر والصومال وهرر بينما احتل الأحباش مقاطعة باغوص وهرر واقتسم الإنجليز والفرنسيون والطليان الصومال فيما بينهم، وتوغل الإنجليز فى أوغندا والفرنسيون والبلجيك فى إقليم بحر الغزال حتى وصلوا إلى حوض النيل الأعلى فى السنوات التالية فكان عهد سيطرة المهدية عهد اقتسام ماتسيطر عليه مصر فى السودان، إذ لم يستطع الخليفة عبد الله التعايشى الذى خلف محمد أحمد المهدى الاحتفاظ بتلك الإمبراطورية التى أسسها المصريون في خلال ستين عامًا فى شرق ووسط إفريقيا

حكومة عبد الله التعايشى:

كانت حكومة عبد الله التعايشى أول وآخر حكومة أقامتها «المهدية» فى السودان واستمرت ثلاث عشرة سنة(١٨٨٥-١٨٩٨) نجح خلالها فى السيطرة على الحكم وإقامة جهاز حكومى أمكن أن يؤدى الخدمة المطلوبة منه طوال عهده،ولكن الأحداث التى وقعت فى إمارته الداخلية جعلته يعجز عن مواجهة الخطر الخارجى ، كما جعله انصرافه إلى القضاء على خصومه ومنافسيه فى الداخل لتأسيس سيطرته المطلقة جعله يضطر إلى إخلاء أقاليم بأكملها وهى الأملاك التى ورثها من العهد المصرى فى الجنوب بمدريرية خط الاستواء وبحر الغزال ودارفور وسواكن، واستطاعت الدول الأجنبية الطامعة فيما كانت تسيطر عليه مصر فى خط الاستواء وبحر الغزال وساحل البحر الأحمر وهرر والصومال استطاعت الاستيلاء عليها دون أن يحرك الخليفة ساكنًا للمحافظة عليها أو الدفاع عنها فشهد عهده اقتطاع أطراف الإمبراطورية المصرية فى السودان لحساب إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا، وتسابق الأستعمار الأوروبى للتوغل فى أطراف السودان المصرى للسيطرة على منابع النيل وروافد الأستوائية،وعجزت حكومة التعايشى عن إنشاء «دولة» تعترف الدول بكيا نها وتحترم حقوق السيادة التى ينبغى أن تكون لها داخل حدودها.

كان من أسباب فشل الخليفة التعايشى دخوله فى مغامرات الحروب على حدوده الشمالية مع مصر، وعلى حدوده الشرقية مع الحبشة دون أن يحسن تقدير القوة التى عليها خصومه أو يزن الآثار التى تترتب على هزيمته.

كان وادى حلفا آخر المراكز فى الحدود المصرية التى قررت سلطات الاحتلال فى مصر

الانسحاب منها،وعلى مسافة ثلاثين ميلا جنوب حلفا امتدت منطقة تفصل آخر مراكز الحدود المصرية التى هى أول مراكز المهديين فى الشمال،وهذه المنطقة استمرت مسرحًا لمناوشات حدودية متعددة وحاولت سلطات الاحتلال التفاوض مع المهدية،وكان فى وسع الخليفة التعايشى تأمين حدوده من ناحية مصر دون الدخول فى حرب معها لوقبل هذا التفاوض ولكن باءت المحاولة بالفشل وبقى الخليفة مصممًا على غزو مصر.

وفى أكتوبر ١٨٨٦ خرج جيش الدراويش بقيادة «عبد الرحمن النجومى» قاصدًا حدود مصر فوصل إلى دنقله ،وبدأوا يشئون الغارات على نقاط الاستحكامات المصرية حتى وصلوا إلى توشكى وهناك وقعت معركة توشكى الحاسمة التى انهزم فيها الدراويش وقتل فيها عبد الرحمن النجومى نفسه وبهذه المعركة تحطمت نهائيًا آمال الخليفة عبد الله التعايشى فى مصر.

كذلك لم يكن الخليفة أكثر توفيقًا فى شرق السودان. وكانت سواكن المركز الذى قررت سلطات الاحتلال البريطانى الاحتفاظ به فى شرق السودان، وقد حاولت بريطانيا أن تثنى الخليفة عن سواكن، ولكن الخليفة كان يطمع فى هذا الميناء لتنمية التجارة من ناحية،ولأن سواكن طالما بقيت فيها قوات انجليزية ـ مصرية سوف تبقى دائمًا مركزًا للوثوب منه على حكومة الخليفة وتهديدها.حاول الدراويش محاصرة الطرق المؤدية إليها وتركزوا فى طوكر التى تقع فى جنوب سواكن فى الطريق بين الخرطوم والساحل وهى التى كان يعتمد المهديون عليها فى تموين جيوشهم فى السودان الشرقى وكانوا يدركون أنه إذا خرجت من أيديهم اضطروا إلى التخلى عن السودان الشرقى بأكمله.

ترتب على انتشار الدراويش حول سواكن ووجود طوكر فى أيديهم أنه صارت السلطات فى سواكن تواجه مشكلة خطيرة فبا الإضافة إلى عدم استمرار المعاملات التجارية بين سواكن والساحل فقد نال ذلك من سمعة إنجلترا ومصر اللتين بقيتا مكتوفتى الأيدى تعجزان عن الحركة وترضيان بقاء قواتهما محصورة فى سواكن لذلك لم يكن هناك مفر من الهجوم على طوكر. وكانت معركة طوكر هى المعركة الفاصلة فى تاريخ شرق السودان فبعد سبع سنوات من سقوطها فى ايدى الدراويش نجحت السلطات الحكومية المصرية الإنجليزية فى سواكن من الاستيلاء عليها، وحققت للسودان الشرقى ما حققته واقعة توشكى لوادى النيل. هدأت بعد هذه الواقعة الأمور فى السودان الشرقى مدة ثلاث سنوات حتى ظهر عدو جديد فى المنطقة هم الطليان الذين كان نشاطهم هو الذى جعل الحكومة البريطانية تقرر استرجاع السودان ـ وقصة

الخطر الإيطالى.فى السودان الشرقى إنما هو جزء من قصة اقتسام أملاك مصر فى السودان على يد الدول الأجنبية والتى عجزت حكومة الخليفة عبد الله عن الدفاع عنها والاحتفاظ بها.

اقتسام ما كان مع مصر فى السودان :

كانت الدول التى اقتسمت السودان بعد خروج الجيش المصرى منه هى إنجلترا وفرنسا وايطاليا والحبشة بين أعوام ١٨٨٢-١٨٩٢،كما إستطاع ليوبولد ملك البلجيك أن يصل بحدود «ولاية الكونغو الحرة» التى أنشأها فى إفريقيا الوسطى الغربية إلى ما كان يتبع مصرفى مديرية خط الاستواء. أسس الطليان مستعمرة إريتريا على أنقاص ما كان يتبع مصر فى السودان الشرقى وساحل البحر الأحمر،واستولت الحبشة على هرر، وأنشأ الفرنسيون مستعمرة الصومال الفرنسى عند باب المندب، بينما أنشأ البريطانيون مستعمرة الصومال الإنجليزى التى تطل على ميناء عدن،وتمكن ليوبولد ملك البلجيك من استئجار «حاجز لادو» وتاريخ إنشاء كل هذه المستعمرات هو قصة ضياع هذه البلاد لامن مصر بل من أبنائها أيضًا وقد قسمت أراضى الساحل الصومالى على النحو التالى:

أ-ماكان يتبع مصر فى الساحل الصومالى

١-**الصومال الإنجليزى** : تألف من المنطقة التى تضم موانى زيلع وبلها روبربر على خليج عدن التى استولى عليها الإنجليز منذ أخلاها المصريون بين أعوام ١٨٨٥-١٨٩٨ وكانت بريطانيا أبلغت الدول الأخرى فى يوليو ١٨٨٧ أن الساحل الصومالى ابتداء من جيبوتى إلى بندر زيادة قد وضع تحت الحماية البريطانية،ولم تعترض أى من الدول على هذا التبليغ.

٢-**الصومال الفرنسى**:تأسست هذه المستعمرة من إمتلاك الفرنسين لميناء أوبوك والمنطقة المجاورة الواقعة على خليج عدن. تنازع الفرنسيون والإنجليز على الحدود بين الصومالين، وأسفر النزاع عن عقد اتفاق انجليزى فرنسى فى فبراير١٨٨٨اعترف فيه الفرنسيون بحماية الإنجليز على ساحل الصومال حتى بندر زيادة آخر حدود الصومال الإنجليزى نظير اعتراف الإنجليز للفرنسيين بنفوذهم حتى خليج تاجورا.

٣-**الصومال الإيطالى**:احتل الطليان بقية الساحل الجنوبى لخليج عدن عند آخر حدود الصومال الإنجليزى عند بندر زيادة.فى مارس ١٨٩١ابرم الإنجليز والطليان اتفاقًا لتحديد مناطق النفوذ بينهما.

ب-ما كان تحت الحكم المصرى فى بحر الغزال وخط الاستواء

طلت مديريتا بحر الغزال وخط الاستواء التابعتان للنفوذ المصرى مجهول ما يقع فيهما من أحداث حتى بدأت الشائعات تروج عن وجود أوروبيين لايعلم أحد عنهم شيئًا فى هذه المنطقة وهؤلاء الأوروبيون كانوا هم البلجيك والفرنسيين فى بحر الغزال،والإنجليز والذين أرادوا التوغل فى منطقة خط الاستواء،وترتب على نشاط هؤلاء وهؤلاء أن ما فقدته مصر فى هذه الجهات آل لحساب أنجلترا وفرنسا وبلجيكا ونجحت بريطانيا فى ديسمبر ١٨٩٠ أن تعقد مع ملك أوغندا(موانجا)معاهدة تضع أوغندا تحت حماية بريطانيا واستماتت بريطانيا فى انتزاع أوغندا من منافسيها الفرنسيين والبلجيك لأنها أدركت أن هذه البلاد هى المدخل الوحيد تقريبًا إلى بحيرتى البرت وألبرت إدوار،وتسيطر على مساقط مياه نهر النيل وتعتبر المفتاح الطبيعى لكل حوض النيل وأغنى بقاع إفريقيا الوسطى،فكان معنى السيطرة على أوغندا إستعلاء النفوذ والتفوق التجارى فى أغنى أجزاء إفريقيا وأكثرها سكانًا فى ذلك الحين وفى إبريل ١٨٩٤ أعلنت بريطانيا الحماية رسميًا على أوغندا.

حاجزلادو:

بعد ما أقام البلجيك دولة الكونغو الحرة توجهت أطماعهم إلى التوسع شمالًا وشرقًا إلى مديريتى خط الاستواء وبحر الغزال.وفى عام ١٨٩٨ احتل البلجيك منطقة حاجزلادو وهو منفذ على النيل الأعلى بموجب إيجار يستمر مدة حكم الملك ليوبولد،وعقدت بلجيكا مع بريطانيا اتفاقية أذنت لها باحتلال الحاجز شريطة ألا يعتدوا على بحر الغزال مع احتفاظ مصر بحقوقها فى حوض النيل الأعلى، وأدت هذه الاتفاقية إلى حدوث متاعب كثيرة بين البلجيك وحكومة السودان حتى أمكن تسويتها عام ١٩٠٦ باتفاق نص على إعادة حاجزلادو إلى حكومة السودان خلال ستة أشهر من وفاة الملك ليوبولد وفى يونيو ١٩١٠ اعيدت المنطقة إلى الحكومة السودانية (بعد وفاة ليويولد)

جـ- ما كانت تسيطر عليه مصر فى ساحل البحر الأحمر والسودان الشرقى:

إريتريا وكسلًا: بدأ التغلغل الإيطالى فى ساحل البحر الأحمر والسودان الشرقى عندما ابتاعت شركة إيطالية من أحد الشيوخ المحليين منطقة صغيرة فى الأراضى الصحراوية بالقرب من ميناء عصب، واحتجت الحكومة المصرية على هذه الصفقة باعتبار أنها متعارضة مع ما لمصر حقوق فى السيادة على هذه الجهات.راقب الطليان استفحال الثورة المهدية فبادروا بإرسال قوات عسكرية لاحتلال عصب واحتلوه بالفعل عام ١٨٨٥ وغادرت بقايا الحامية المصرية مصوع عائدة إلى السويس ومالبث أن اشتبك الطليان مع الأحباش ولكن سرعان ما اتفقا على

التصالح لصد جيش الخليفة التعايشى ووقف هجوم الدراويش، وفى مايو ١٨٨٩عقد ملك الحبشة مع الإيطاليين معاهدة رسمت حدود الأملاك الإيطالية اعترفت فيها الحكومة الإيطالية بسيادة «منليك» ملك الحبشة على الحبشة واعترف « منليك» نفسه بحقوق إيطاليا فى السيادة على الأملاك الإيطالية فى البحر الأحمر والتى تمتد إلى الداخل وفى يناير ١٨٩٠ صدر مرسوم من ملك إيطاليا بإنشاء مستعمرة إريتريا، وعمل الطليان على تثبيت أملاكهم فى إريتريا بعقد عدد من الاتفاقيات مع بريطانيا ومصر والحبشة لتخطيط حدود المستعمرة التى يتألف أكثر أراضيها من أرض كانت تابعة لمصر.

(٣) مقاومة المقاومة السودانية

الوجه الثالث للسياسة البريطانية (احتلال السودان)

مرت السياسة البريطانية للسودان ـ كما سبق القول ـ بمرحلتين هما سياسة عدم التدخل ثم إخلاء السودان،وكانت المرحلة الثالثة ـ الوجه الثالث ـ هو قرار استرجاع السودان وإنهاء سيطرة المهدية. نجم عن قرار الإخلاء ضياع السودان واقتسام ما كان يتبع مصر من أراضيه وتعرض حدود مصر الجنوبية لتهديد الدراويش الذى لم يوقفه إلاهزيمة النجومى فى توشكى ١٨٨٩، ويمكن القول أن من تاريخ معركة توشكى تبدأ مرحلة تفكير بريطانيا فى استرجاع السودان بصورة جدية فقد خشى الإنجليز من فرنسا التى كانت تعارض الاحتلال البريطانى لمصر معارضة شرسة ورغبتها الملحة فى التوغل فى إفريقيا الوسطى والوصول إلى حوض النيل وضم إقليم بحر الغزال إلى أملاكها الإفريقية على أساس أنه حق مباح منذ أن أخلى المصريون السودان، فإذا استطاع الفرنسيون الوصول إلى حوض النيل من ممتلكاتهم فى إفريقيا الغربية فهذا معناه إزعاج الاحتلال البريطانى وتهديده بقطع المياه عن مصر، وكانت الفكرةالذائعة أن السيطرة على منابع النيل والتحكم فى توزيع مياه النهر يكفلان السيطرة على مصر ذاتها، وبالفعل قررت الحكومة الفرنسية إرسال حملة الغرض منها الوصول إلى فاشوده. بدأ الزحف الفرنسى من الكونغو الفرنسى (كونغو برازافيل) واتجه شرقًا حتى وصل إلى فاشوده التى تسيطر على مجرى النهر الأعلى عند ملتقى رافديه بحر الغزال وبحر السوباط،ولم يوقف هذه الحملة ـ مؤقتًا غير معارضة البلجيك الذين كانوا يعملون فى الوقت نفسه للتوغل فى هذه المنطقة. وهذا النشاط المتزايد من جانب الفرنسيين حرك ليوبولد ملك البلجيك لتوسيع أملاكه واحتلال حاجز لادو الذى استأجره من البريطانيين وطمع فى أن يؤجر له خديوى

مصر كل سودان وداى النيل ابتداء من الخرطوم جنوبًا إلى بحيرة ألبرت المكان الذى تبدأ منه منطقة النفود الإنجليزى[1].

وهكذا صار واضحًا للإنجليز أن مسألة حوض النيل أو السودان بأكمله يجب أن يثار عاجلًا وأن تكون القوة المسلحة القول الفصل فى حلها، وقررت بريطانيا استرجاع السودان وكان ذلك فى مارس ١٨٩٦ وبدأت باسترجاع دنقله، وقوبل الزحف على دنقله بعاصفة من الاحتجاج والاستنكار من فرنسا.

كان هذا الاجراء مفاجئًا حتى بالنسبة لمصر عندما أبلغ المندوب السامى البريطانى فى مصر اللورد «كرومر» خديوى مصر بأن الحكومة الإنجليزية قررت إرسال حملة للسودان وأن عليه تجهيز أورطتين من الجيش المصرى للسفر، وتولى قيادة الحملة السردار كتشنر تحت إشراف اللورد «كرومر» ووقع الاشتباك بين قوات الحملة والدراويش وانهزم الدراويش هزيمة كبيرة وألخلوا دنقله من غير قتال يذكر واحتلها الجيش الزاحف فى سبتمبر١٨٩٦. وباسترجاع دنقله يكون كتشنر أنهى التعليمات التى لديه ولا يمكنه الزحف إلى أبعد من هذا المكان إلا إذا صدرت إليه تعليمات جديدة بذلك. وعاد كتشنر إلى القاهرة.

كان من الواضح أنه لامفر من استئناف العمليات العسكرية واستمرار الزحف للوصول إلى الخرطوم لعدة أسباب منها أن حملة دنقله أقامت الدليل بسبب النفقات القليلة التى تكلفتها والانتصارات الباهرة التى أحرزتها بسهولة على أن من الممكن تحطيم قوة الدراويش نهائيًا، وأن الخوف من أن يصل الفرنسيون إلى بحر الغزال وأقاليم النيل العليا قد بلغ مداه منذ أن وصل الفرنسيون برئاسة الكاتبن مارشان إلى النيل الأعلى ورفع العلم الفرنسى على فاشوده لذلك قررت الحكومة البريطانية الزحف إلى ما وراء دنقله.

حملة أم درمان: عقب انتهاء تجربة دنقله ذهب كتشنر إلى إنجلترا ١٨٩٧ لينال موافقة حكومتة على استمرار الزحف حتى يصل إلى فاشوده قبل وصول «مارشان» إليها وتوطيد أقدامه فيها فيتعذر إخراجه من حوض النيل الأعلى من غير قيام حرب بين إنجلترا وفرنسا. نال كتشينر الموافقة وعن طريق وادى حلفا بلغ «مروى» واتخذها مركزًا له ثم وقعت معركة «أبى حمد» التى انهزم فيها الدراويش وأخلوا بربر متقهقرين وتلاقى الجيشان فى واقعة العطبرة وانهزم الدراويش وقتل منهم حوالى ثلاثة آلاف وبلغ عدد أسراهم ألفين، وكان هذا الظفر

(١) مصر والسودان ـ المرجع السابق ـ ص٤٤٧.

أقوى تمهيد لفتح السودان. قرر كتشنر التقدم إلى ام درمان وكان معروفًا أن الخليفة التعايشى يحشد قواته هناك والتحم الجيشان فى معركة أم درمان الفاصلة وانهزم الدراويش وفر الخليفة ورجاله ودخل كتشنر أم درمان، وبذلك انتهت دولة الدراويش وظل الخليفة مطاردًا أكثر من سنة ثم قتل فى معركة أم دويكرات فى كردفان وكانت معركة نهائية عثر بعد انتهائها على الخليفة وقد فارق الحياة على سجادة صلاته المصنوعة من فرو الأغنام بينما قتل جميع قادة الحركة المهدية وزعمائها أو سُجنوا، كانت تلك الهزيمة هى الفاصلة فى انهيار الدولة المهدية[1].

بعد واقعة أم درمان بيومين رفع كتشنر فى سبتمبر ١٨٩٨ العلمين المصرى والإنجليزى على سراى الحكومة المخربة وأبلغت الحكومة البريطانية الحكومة المصرية أن «الإنجلترا حق الاشتراك فى السودان بما ضحت فيه من المال والرجال» وهو البلاغ الذى مهدت به الحكومة البريطانية لعقد الاتفاق الثنائى لإدارة السودان.

حادث فاشوده:

لم تنته مشاكل استرجاع السودان بهزيمة الخليفة عبد الله فى واقعة أم درمان وإنهاء دولته بل بقى على كتشنر واجب آخر هو الوصول بأقصى سرعة إلى فاشوده. غادر كتشنر الخرطوم بطريق النيل الأبيض، وعندما وصل فاشوده وجد «مارشان» قد سبقه فعلًا ورفع العلم الفرنسى عليها، وهناك على بعد مائتى ياردة رفع كتشنر العلم المصرى،وبدأت الأزمة بين إنجلترا وفرنسا.

وأهمية حادث فاشوده تنحصر فى أنه كان أحد مظاهر المنافسة الشديدةبين فرنسا وإنجلترا على الاستعمار فى إفريقيا عمومًا، وعلى تأسيس مناطق النفوذ فى حوض النيل الأعلى بالذات، خاصة وأن الفرنسيين شهدوا أن الإنجلتز يتوغلون فى أراضى أوغندا ويعقدون المعاهدات مع البلجيك بتأجير حاجز لادو للكونغو الحرة، ودل ذلك على أن الإنجليز كانوا يعتبرون السودان ملكًا مباحًا، ورأى الفرنسيون أن يكون لهم نصيب مماثل فى اقتسام هذه الأملاك التى أخلاها المصريون فى السودان.

استحكمت الأزمة حلقاتها بوصول «كتشنر» ومارشان إلى فاشوده، وكان أمام الطرفين إما التفاهم والمفاوضة السلمية أو المواجهة العسكرية ووقوع الحرب بين الدولتين، ولكن فرنسا لم تكن على استعداد للدخول فى قتال قد يعود عليها وعلى مستعمراتها.بأوخم العواقب،

(١) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ـ ص٩٥.

فأذعنت للأمر الواقع وأمرت «مارشان» بالانسحاب وإخلاء فاشوده وتسوية الخلاف سلميًا بالاتفاق على تحديد مناطق النفوذ بين أملاك ومستعمرات الإنجليز والفرنسيين فى نهر النيجر وبمقتضى الاتفاق خرج حوض بحر الغزال وبحر العرب بأجمعه وبما فى ذلك دارفور من دائرة النفوذ الفرنسى.

الحكم الثنائى١٨٩٩:

بعد ست عشرة سنة من واقعة أم درمان التى حسمت سيطرة المهدى على السودان أمكن مطاردة المهديين فى أنحاء السودان والسيطرة الكاملة على المواقع التى كانت لاتزال فى ايديهم .وكان رفع العلمين المصرى الإنجليزى جنبًا إلى جنب إشارة على التغيير الذى طرأ على الوضع فى السودان بعد زوال المهدية منه واسترجاعه. كانت مشكلة الوضع السياسى فى السودان من أعوص المشاكل فكيف يدار السودان فى المستقبل؟

طرحت ثلاثة حلول؛ إما أن تضم بريطانيا السودان إليها وإما أن تعتبر السودان جزءًا من الامبراطورية العثمانية أى تعود إلى أملاك هذه الإمبراطوية، وإما أن يكون هناك نوع من الحل الوسط تتحقق به الأغراض التى تريدها بريطانيا.وتناول اللورد «كرومر» بالبحث كل واحد من هذه الحلول الثلاثة فقال إن بريطانيا لأسباب سياسية ومالية لا تريد أن تضم السودان إليها، وأن الاعتراف بأن السودان جزء من الأملاك العثمانية من شأنه أن تستمر كل المصاعب الدولية والعقبات التى واجهتها الحكومة البريطانية خلال الخمس عشرة سنة الماضية عند تناول المسائل المتعلقة بالشئون المصرية؛ لذلك وجب التوصل إلى حل وسط بين هذين الإجراءين، ورأى «كرومر» أن الحل الوسط يتخذ شكل اتفاق أو وفاق وتفتق ذهنه إلى مشروع ثنائى للحكم فى السودان وهو ماعرف بالوفاق الثنائى بين الحكومتين المصرية والبريطانية، وكان يتألف من مقدمة واثنتى عشرة مادة وشفع كرومر مشروعه بمذكرة لتفسير الأغراض التى توخاها من هذا المشروع جملة ثم كل مادة من مواده تفصيلًا.

لم يبحث كرومر مع الحكومة المصرية النقط التفصيلية الواردة فى مشروع الاتفاق، ومن الثابت أن الخديوى ورجال بطانته ماكانوا يعرفون شيئًا على وجه الدقة عن الوضع السياسى الذى كان يراد تقريره للسودان أو عن تفاصيل نظام الحكم فيه حتى رفع العلمين، اتضح فيما بعد أن كان المقصود منه التدليل على مشاركة البريطانيين فى حكم السودان وتقرير سيطرتهم عليه عن طريق السردار الانجليزى الذى وصفه «كرومر» بأنه النائب الوحيد فى السودان ـ عن الحكومتين البريطانية والمصرية والذى لا يجب التعويل على أحد غيره ـ .

وهكذا خضع السودان للحكم الثنائى الذى فرض عليه، وفى ١٩ يناير ١٨٩٩ وقعت على الاتفاق كل من مصر وبريطانيا، ونصت مادته الأولى أن يسرى هذا الاتفاق على جميع الأراضى الكائنة جنوبى الدرجة الثانية والعشرين فى خطوط العرض وهى: أولًا الأراضى التى لم يخلها قط الجنود المصريون منذ ١٨٨٢، وثانيًا الأراضى التى كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان وفقدت منها وقتيًا ثم تمّ استردادها؛ تلك كانت نهاية قصة سودان وادى النيل حتى استقل بنفسه وشعبه فى عام ١٩٥٦.

*****

الفصل الرابع

أولًا: دول الساحل والممالك الزنجية

١- مملكة اليوروبا

٢- مملكة بنين

٣- مملكة الأشانتى

٤- مملكة داهومى

ثانيًا: مقاومة الممالك الزنجية الساحلية فى القرن ١٩

١- المقاومة ضد الغزو الفرنسى

٢- المقاومة ضد الغزو البريطانى

أولًا: دول الساحل والممالك الزنجية

هذا ما كانت عليه مناطق السودان الكبير الممتد من الأطلسى الى البحر الأحمر، أما على الساحل الإفريقى فقد قامت ممالك زنجية اكتسبت شهرة تاريخية لما كانت عليه من قوة ونفوذ، قاومت الاستعمار مقاومة عنيفه مضنية شهد بها المستعمرون أنفسهم بما لا قوه من قسوة وقوة هذه المقاومة.

ودول الساحل هى مناطق المستنقعات والغابات الاستوائية الممطرة فى غرب إفريقيا وهى ما أطلق عليها المستعمرون وصف«مقبرة الرجل الأبيض» باعتبارها مناطق لا يمكن اختراقها، ولكن يوجد من الشواهد ما يدل على أن بعض الأوروبيين وكذلك تجار عرب تمكنوا باستمرار من الوصول إلى مناطق حزام الغابات الاستوائية فى سواحل غرب إفريقيا ووجدوا فيها ممالك قائمة، ولكن تاريخ تلك الممالك التى نشأت فى مناطق الغابات الاستوائية تختلف عن تاريخ الممالك والإمبراطوريات التى ظهرت فى المناطق العشبية جنوب الصحراء الكبرى، وكذلك سكان تلك المناطق يختلفون جسميًا وثقافيًا عن الإفريقيين الذين يعيشون فى شمال مناطق الغابات.

ورغم أن كتابًا عربًا من مؤرخين وجغرافيين ذكروا الكثير عن الأراضى والشعوب والقبائل التى تعيش فى المناطق العشبية جنوب الصحراء الكبرى إلا أنهم لم يذكروا شيئًا عن أراضى وقبائل منطقة الغابات الاستوائية، لذلك كان يعتقد إلى وقت قريب أن القبائل والشعوب التى تعيش على سواحل غينيا وفى داخل الغابات ليس لها تاريخ، ولكن تبين بعد اكتشاف الكثير من الشواهد التاريخية من تماثيل وأوانى وآثار أخرى مصنوعة من الصلصال الأحمر والبرونز دلت على أنها نتاج فن مميز وله طابع خاص يرجع إلى فترات زمنية بعيدة تبدأ من القرن التاسع قبل الميلاد حتى القرن الثالث بعد الميلاد[١]. وأنه كانت هناك حضارة

(١) الإسلام فى ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، تاليف جوان جوزيف، ترجمة مختار السويفى/ دار الكتاب اللبنانى صفحة ١٠٠.

منتشرة ومنشرة بين قبائل النوك النى كانت تعيش فى مساحة على امتداد حوالى خمسائة كيلو متر فى أراضى نيجيريا، وتقول بعض الاحتمالات التى لم يثبت تأكيدها أن هؤلاء هم أجداد قبائل اليوروبا التى تعيش الآن فى نيجيريا، وأيًّا كان الأمر فإن اليوروبا الذين ورثوا هذه المنطقة كانوا مستقرين فى مناطق واسعة غرب نيجيريا وخلال القرن الثامن الميلادى أسسوا عاصمة لهم فى مدينة إيفى IFE التى كانت عاصمة دينية وثقافية لجميع قبائل اليوروبا.

ومن أشهر ممالك الساحل:

١- مملكة اليوروبا: كان انتشار اليوروبا فى بطاح شاسعة من أهم عوامل تفككهم إلى ممالك مستقلة، كانت أقواها ولاية أويو OYO التى اتخذت مدينة إيفى عاصمة لها فى القرن الحادى عشر الميلادى، وظلت عاصمة روحية لجميع قبائل اليوروبا لمدة طويلة حتى غزتها قبائل الإيدو Edo التى كانت تعيش فى بنين جنوب ولاية أويو وأسسوا مملكة بنين[١].

لم يعرف إلا النزر اليسير عن تاريخ اليوروبا بالرغم من أنها أكثر دول غرب إفريقيا شهرة لأن تاريخها لم يسجل. ويشتهر مجتمع اليوروبا بفنونه وأعمال الحفر على الخشب والاشغال البرونزيه التى تعد من أروع أعمال الإبداع الفنى فى غرب افريقيا. ولم يكن اليوروبا مجموعة عرقيه واحدة بل كانوا تنوعًا من قبائل توحد بينهم الأعراف، ويمكن القول أن اليوروبا كانوا على غرار الهوسا نظامًا للحكم أكثر منهم دولة واحدة[٢].

٢- مملكة بنين: تأسست مملكة بنين فى نفس الوقت الذى تأسست فيه دولة اليوربا فى القرن الحادى عشر، وتوسعت المملكة فى مناطق الغابات المحيطة بها وضمتها إلى سيطرتها، واتسم نظام حكمها باستقرار الأمن والسلام حتى عام ١١٠٤ حيث ثارت القبائل على ملكها وأبعدته منفيًا من البلاد وأكدوا حقهم فى اختيار الحكم، وهذه أول نزعة جمهورية معروفة فى تاريخ ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، فقد أعلن شعب بنين إنهاء الملكية وبداية الجمهورية حيث قام الشعب باختيار حاكمه[٣]، واختار الشعب شخصا ليس من الأسرة المالكة ليكون أول حاكم جمهورى لشعب بنين.

(١) الإسلام فى ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء- المرجع السابق صفحه ٩٩
(٢) الوثنية والإسلام ـ المرجع السابق ـ صفحه ٢٣٩
(٣) الإسلام فى ممالك وإمبراطويات إفريقيا السوداء- المرجع السابق صفحه ١٠٧

اتسعت رقعة مملكة بنين نتيجة لقيامها بغزو مناطق الغابات المحيطة وضمتها تحت لوائها. وفى خلال القرن ١٦ كانت بنين مملكة تسيطر على مناطق واسعة تمتد من دلتا نهر النيجر حتى مدينة لاجوس الحالية، ولسوء الحظ كانت هذه المنطقة إحدى المناطق الرئيسية التى هبط فيها المستعمرون لاقتناص العبيد، وقد زود الأوروبيون شعب بنين بالبنادق والأسلحة النارية لمحاصرة الأهالى واصطيادهم أحياء والدفع بهم إلى ساحل خليج غينيا ليصدروا ويباعوا، وانطلقت جيوش بنين المزودة بالأسلحة النارية إلى المناطق الداخلية وأسرت الآلاف واضطر الأهالى للهرب إلى مناطق أكثر تغلغلًا فى الغابات الداخلية والأحراش تكون أكثر أمنًا، حتى أنه فى بداية القرن ١٨ أصبحت مساحات واسعة من جنوب نيجيريا خالية تمامًا من الناس، ولذلك فقدت بنين قدرتها على الاستمرار فى تجارة العبيد واضمحلت بالتالى، ووصمت هذه المملكة فى التاريخ الإفريقى بعار الاشتراك مع الأوروبيين فى تجارة العبيد حتى أنه يشار إليها بأنها «مملكة الدماء»[١].

٣- مملكة الاشانتى: كانت الأشانتى وداهومى دولتين استبداد يتين داخليتين شاغلهما الأساس هو الوصول إلى الساحل لإقامة علاقات مباشرة مع التجار الأوروبيين بحيث تستطيعان الحصول على البنادق والبارود بثمن رخيص وبيع الرقيق دون الوسطاء لأن الوسطاء يمتصون غالبية الأرباح التى تحققها التجارة. واتبعت دهومى والأشانتى هذه السياسة بإصرار شديد، واستطاعتا فى غضون القرن ١٨ بناء دولتين بمقدورهما الصمود فى وجه الغارات[٢].

كان ظهور الأشانتى فى بداية القرن ١٥ الميلادى حيث استقرت مجموعة من قبائل الآكان فى مناطق الغابات الاستوائية بغرب إفريقيا، واستقر مقامهم فى مناطق الغابات الواسعة فى شكل جماعات أو ولايات منفصلة لا يربطها أى رابط أو اتحاد عدا العلاقات الروحية التى توجد لدى القبائل المنتمية إلى أصل واحد، كان عدد هذه الولايات يربو على اثنتى عشرة ولاية، ولم تكن كلها على قدر متساو من القوة، بل ظهرت ولاية واحدة هى الأشانتى اعتبرت أقوى هذه الولايات وأصبحت كوماسى Kumasai.عاصمة الأشانتى عاصمة روحية لجميع قبائل الآكان.

وفى خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر تعرضت ولايات قبائل الآكان

(١) الاسلام فى ممالك وامبراطوريات إفريقيا السوداء/ المرجع السابق ص١١٢.
(٢) الوثنية والاسلام/ المرجع السابق ص٢٥٠.

لغزوات مستمرة من القبائل الأخرى المعادية التى تعيش فى المناطق المجاورة، وكانت قبائل الآكان بطبيعتها مسالمة، ولكن هذه الغزوات دفعت الآكان إلى التطلع إلى الاتحاد لتتمكن من مواجهة الأعداء ومن هجماتهم.

وفى أواخر القرن ١٧ تحقق هذا الأمل على يد ملك كوماسى أوزى تو تو Osei tutu الذى نجح فى جمع قبائل الآكان فى مجلس واحد، ودعاهم إلى ضرورة الاتحاد فى أمة واحدة وتحت حكومة واحدة.

لم تمض سنوات قليلة حتى أصبحت مملكة الأشانتى أقوى مملكة فى مناطق الغابات الاستوائية بغرب إفريقيا، وتمثلت قوتها فى كميات الذهب التى تملكها والتى تخبئها وتخفيها داخل أماكن سرية مجهولة فى عمق الغابات. وكانت القوة العسكرية الكبيرة لدولة الأشانتى ذات تمويل ذاتى يأتى أساسًا من عمليات تبادل منتظمة لتراب الذهب مقابل أسلحة نارية مع الهولنديين، وأدى ذلك الأمر الى استنفار البريطانيين وحلفائهم الإفريقيين من الفانتى وبقائهم فى حالة تأهب دائم من الأشانتى حتى أن الفانتى تخلوا عن الإنتاج الزراعى نظرًا لتهديد غزو الأشانتى الدائم لهم[١].

بدأت مملكة الأشانتى فى غزو الأراضى المجاورة، وأقامت علاقات مع القبائل التى تعيش على سواحل خليج غينيا، وكانت هذه القبائل تتولى أعمال الوساطة بين مملكة الأشانتى وتجار الرقيق الأوروبيين الذين ينزلون السواحل المطلة على خليج غينيا، وعندما ازدادت قوة الأشانتى قررت استبعاد القبائل الوسطاء والتعامل مباشرة مع التجار الأوروبيين، ولكى يتحقق هذا الغرض كان لابد من الاستيلاء على أراضيهم المطلة على المحيط. وقام جيش الأشانتى بغزو القبائل التى تعيش فى الأراضى الساحلية وارتكب ضدهم مذابح جماعية وحشية، واستحق بذلك الوصف الذى تطلقه عليه عمليه الحكايات المتوارثة باعتباره أكبر جيوش غرب إفريقيا شجاعة وتوحشًا. وأصبحت مملكة الأشانتى أقوى ممالك غرب إفريقيا الساحلية. وفى خلال القرن ١٩ ناضلت الأشانتى بقوة وببسالة ضد المستعمرين الإنجليز حتى خضعت فى النهاية وأصبحت مملكتهم محمية تدخل ضمن مستعمرة ساحل الذهب (غانا حاليًا)[٢].

(١) إفريقيا منذ عام ١٨٠٠ – رونالد أوليفر وانتونى اتمور – ترجمة فريد جورج بورى/ مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة صفحه ٩٤

(٢) العبودية فى إفريقيا ـ المرجع السابق ـ صفحة ١١٢–١١٨

٤–مملكة داهومى: جذبت مملكة داهومى أعظم قدر من الاهتمام فى القرن ١٩ ببسالة شعبها الفانتى المحارب رجالًا ونساء. وتعد داهومى دولة حربية من الطراز الفريد ظلت طيلة ثلاثة قرون تنتهج سياسة قوامها التوسع، ويندر أن يوجد فى أى مكان فى العالم شعب أخضع كل شىء فيه للحرب ولصناعة الحرب مثله وكان عواقب هذه السياسة هو الإهمال التام للزراعة وتناقص سكانها بسبب غزواتها والغارات من أجل الرقيق، وبسبب استدعاء النساء للخدمة فى الجيش فى أكثر سنوات عمرهن خصوبة. وكان جيش داهومى قوة حسنة الانضباط والتنظيم والأكثر تسلحًا والأفضل تدريبًا فى غرب إفريقيا، ومع ذلك لم يكن النجاح حليف داهومى وأخفقت فى خلق الإمبراطورية التى تؤهلها لهم بسالتهم الحربية لأن سياستها الحربية لم تكن مرتبطة بأى مقصد سياسى[١].

ثانيا: مقاومة الممالك الزنجية الساحلية فى القرن ١٩

كانت نهايات القرن ١٩ بالتحديد ما بين سنوات ١٨٠٠–١٩٠٠ الفترة التى بلغ فيها الغزو الأوروبى لغرب إفريقيا ذروته، فلم يحدث من قبل على مر التاريخ المعروف للقارة أن شهدت مثل هذا النشاط العسكرى أو مثل هذا العدد من الغزوات والحملات من الدول والمجتمعات الإفريقية، ومن أبرز ما شهدته الحملات الفرنسية فى غرب السودان وساحل العاج وداهومى (بنين)، والحملات البريطانية فى بلاد الأشانتى (غانا) ومنطقة دلتا النيجر (نيجيريا). وفى هذه الفترة كان الإفريقيون جميعًا دون استثناء يتوخون الدفاع عن سيادتهم وأسلوبهم التقليدى فى الحياة، وإن اختلفت الاستراتيجيات والطرائق التى اتبعوها لتحقيق هذا الهدف. وكان أمام الإفريقيين ثلاث خيارات منذ الغزو الأجنبى: إما المواجهة وإما التحالف وإما الإذعان والخضوع، وكانت استراتيجية المواجهة تعنى الحرب السافرة والحصار وتكتيكات حرب العصابات وسياسات حرق المزارع لحرمان العدو من استخدامها، وقد لجأ الإفريقيون إلى الخيارات الثلاثة جميعها، وإن كان الحكام الذين اختاروا استراتيجية المجابهة القتالية أكبر من عدد الذين اختاروا الخضوع والخنوع[٢].

١– المقاومة الإفريقية ضد الغزو الفرنسى

انتهج الفرنسيون ابتداء من عام ١٨٠٠ وما بعده سياسة بسط سيطرتهم على منطقة غرب

(١) الوثنية والإسلام ـ المرجع السابق صفحة ٢٥٨

(٢) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق صفحة ١٢٨

إفريقيا بأسرها من السنغال إلى النيجر أولًا ثم تشاد مع ربط تلك المناطق بمراكزهم على الساحل الغينى فى ساحل العاج وداهومى. ولجأوا فى احتلالهم لغرب إفريقيا إلى أسلوب الغزو العسكرى أكثر من لجوئهم الى عقد معاهدات الحماية كما فعل البريطانيون.

أما عن ردود فعل الإفريقيين فقد التجأوا إلى كل الخيارات المتاحة أمامهم: المجابهة والتحالف والخضوع. كانت المقاومة الإفريقية فى تلك الحالات أطول أمدًا من مثيلاتها فى أى بقعة أخرى لسببين أولهما أن اعتماد الفرنسيين على الغزو العسكرى أثار ردود فعل نضالية، وثانيهما أن الاسلام كان منتشرًا بين شعوب تلك المناطق، وكان يعنى حكم البيض بالنسبة للمجتمعات الإسلامية فى غرب إفريقيا خضوعًا للكفار وهو مالا يقبله أى مسلم؛ لذلك فإن تلك الشعوب عمدت إلى مقاومة الأوروبيين بحماس وإصرار زائدين كان يفتقد إليهما معظم من لايدينون بالإسلام. وقد سبقت الكتابة عن المقاومة الإسلامية والإفريقية للغزو الفرنسى فى السنغال وبلاد التكرور وإمبراطورية ساموری توری، والآن أختص بالحديث عن المقاومة الزنجية الوطنية فى دول الساحل.

مقاومة داهومى: منذ منتصف القرن ١٩ أخذت الدول الأوروبية وبخاصة بريطانيا وفرنسا تبدى اهتمامها بتدعيم نفوذها على الساحل الغربى الإفريقى، ونجحت فرنسا فى عام ١٨٥١ فى توقيع معاهدة تجارية مع داهومى، وتعهد بمقتضاها ملكها« غيزو» بالمحافظة على سلامة الحصن الفرنسى فى «وايداح» أهم مدنها. حاولت بريطانيا التوغل فى داهومى بحجه وقف تجارة الرقيق، ولكن ملك داهومى لم يكن مستعدًّا للتخلى عن هذه التجارة وأعلن أن الداهوميين ليسوا فلاحين وإنما هم محاربون وأن رخاء البلاد يتوقف على التجارة وأنهم لا يسمحون للبريطانيين أو غيرهم بالتدخل فى شئونهم.

ظل التنافس البريطانى الفرنسى على أشده وكلما يتزايد نفوذ بريطانيا فى لاجوس (نيجيريا) كان يرد عليها بخطوة فرنسية فى داهومى، وعندما فشل البريطانيون فى إقناع داهومى بقبول الحماية البريطانية قذفوا مدينة (وايداح) بالقنابل ولم يكن أمام داهومى سوى قبول الحماية الفرنسية. وفى عام ١٨٥٨ أعطى ملك داهومى للفرنسيين المدينة وستة كيلومترات من الأراضى إلي الداخل.

فى هذه الأثناء كان البريطانيون يدعمون نفوذهم وممتلكاتهم على طول الساحل النيجيرى، وكانت ألمانيا بدورها منهمكة فى التدخل فى توجو فأخذت فرنسا تتوغل أكثر

فأكثر داخل داهومى مما دعا ملك داهومى أن يطلب فسخ المعاهدات الفرنسية وسحب قواتها العسكرية وبالطبع رفضت فرنسا الانسحاب وعززت قواتها العسكرية فى داهومى بل أكثر من ذلك بدأت تفرض رسومًا على التجارة، وأدى هذا إلى نقص كبير فى إيرادات ملكها فما كان منه إلا أن قام بهجوم مفاجئ على القوات الفرنسية التى لم تكن كافية لتستطيع اتخاذ إجراءات فعالة ضد الداهوميين، ورأت فرنسا أنه من الأفضل تسوية الأمور بالوسائل الدبلوماسية، فقام الحاكم الفرنسى بزيارة ملك داهومى الذى استقبله بكياسة ولكنه رفض أن يبحث معه أية أمور، ولم يسمح له بمغادرة البلاد، ولكن حدث أن مات الملك فاستطاع الحاكم الفرنسى أن يفر من داهومى وكان ذلك عام ١٨٨٩.

أخذ ملك داهومى الجديد(بيجا نزين) يستعد لمهاجمة المواقع الفرنسية على طول الساحل، وقبل أن يشرع فى الهجوم قبض على المبشرين والتجار الأوروبيين كرهائن، ولكن لم يفلح الداهوميين فى هجومهم وخضعوا للمباحثات مع الفرنسيين، ولكى يدللوا على حسن نواياهم أفرجوا عن المبشرين ووافقوا على قبول الحماية الفرنسية مقابل أن تدفع فرنسا لهم عشرين ألف فرنك سنويًا.

وبالرغم من هذا الاتفاق لم يكن الداهوميون يقبلون الهزيمة، وكانوا يريدون فترة يلتقطون فيها الأنفاس ويعيدون تنظيم جيوشهم، وبالنقود التى قدمها الفرنسيون اشترى الملك(بيجا نزين) مدافع من الألمان ودعا جنود جارته«توجو» الذين دربهم الألمان لإعادة تنظيم الجيش الداهومى. وفى عام ١٨٩١ قام الملك بمحاولة ثانية لطرد الفرنسيين وعاد بألفين من الأسرى وهاجم سفينة فرنسية.

وهنا أدرك الفرنسيون ـ وقد رأوا الغزو الألمانى لتوجو ـ ضرورة العمل بسرعة حتى يمكن إبقاء الألمان بعيدين عن داهومى، فقاموا بغزو مكثف على داهومى، وفى غضون عام واحد كانت المملكة قد تم غزوها بأسرها[1].

مقاومة شعب البولى فى ساحل العاج:

كان من المعتقد أن المقاومة ضد الفرنسيين فى مناطق الغابات فى غينيا وساحل العاج لم تبدأ إلا بعد عام ١٩٠٠، غير أن شعب البولى المقيم فى ساحل العاج أثبت خطأ هذا

(١) الوثنية والإسلام ـ المرجع السابق صفحة ٣٤٨ ـ ٣٥٦.

الاعتقاد، فقد بدأ نضاله ضد الفرنسيين عام ١٨٩١ حينما واجه حملتين عسكريتين فرنسيتين فشلتا أمام المقاومة العنيدة من جانب البولى. وكانت الفترة الممتدة من ١٨٩٥-١٨٩٨ فترة سلام فى بلاد البولى، غير أن الفرنسيين بعد أن هزموا ساموری توری عام ١٨٩٨ قرروا البدء باحتلال البولى احتلالاً فعليًا وأعلنوا أن منطقة البولى إقليم عسكرى وشنوا سلسلة من الحملات العسكرية أسفرت عن الاستيلاء على كوكومبو أكبر مراكز استخراج الذهب فى بلاد البولى، كما قتلت زعيم البولى وأعدمت قائده الذى ضرب فى زنزانة حتى الموت ولكن ثورة البولى لم تخمد ولجأوا إلى تكتيكات حرب العصابات واستمروا فى مناوشات ضد القوات الفرنسية، ولم يستتب السلم إلا عندما أدرك القائم بأعمال حاكم المستعمرة أنه لا فائدة من استخدام القوة فأمر بوقف العمليات العسكرية فى عام١٩٠٢ [1]

٢- المقاومة الافريقية ضد الغزو البريطانى

بينما لجأ الفرنسيون إلى الحرب كوسيلة لاحتلال إفريقيا الغربية فى الفترة ما بين ١٨٨٠-١٩٠٠ استعان البريطانيون بالدبلوماسية السلميةوالحرب فى آن معًا، فقد استخدموا الدبلوماسية السلمية عندما أبرموا عدة معاهدات للحماية مع الدول الإفريقية كما هو الحال بالنسبة للبقاع الشمالية من سيراليون وفى بقاع من بلاد اليوروبا واستخدموا القوة فى بقاع أخرى مثل بلاد الأشانتى والإيجيبو فى بلاد اليوروبا وفى مناطق دلتا النيجر وخاصة فى نيجيريا الشمالية. وكانت ردود فعل شعوب المنطقة مثلما حدث فى إفريقيا الفرنسية تتمثل فى الالتجاء إلى جميع الخيارات المتاحة أمامها وهى المواجهة والتحالف والخضوع أو الجمع بينها.

مقاومة الأشانتى:

لم تشهد منطقة غرب إفريقيا فى تاريخها مواجهة بين الإفريقيين والأوروبيين أطول أمدًا من المواجهة بين الأشانتى والبريطانيين فى ساحل الذهب (غانا)، فقد بدأت هذه المواجهة فى الستينيات من القرن الثامن عشر وانتهت بنهاية القرن ١٩. فى بداية القرن ١٩ بالتحديد عام ١٨٠٥ دخل الأشانتى فى حرب مع جيرانهم الفانتى والأوروبيين فى حرب استمرت مائة عام مع فترات توقف لم تنته إلا مع توطيد السيادة البريطانية.

(١) تاريخ إفريقيا العام- المرجع السابق صفحة ١٤١-١٤٢.

كان الفانتى فى ذلك الوقت أقوى شعوب الساحل، ولهم اتصال دائم مع الأوروبيين مما حفزهم على توسيع حدودهم بمحاربة جيرانهم الأشانتى لانتزاع أراضيهم، ولم يكن الأشانتى حتى ذلك الوقت قد دخلوا فى نزاع مع أية قوة كبيرة فيما عدا داهومى، كما لم يكن الأشانتى تواقين إلى محاربة الفانتى إلا ان أستفزاز الفانتى لهم معتمدين على أصدقائهم البريطانيين جعل الأشانتى يدقون طبول الحرب بحملات ثلاث بدأت عام ١٨٠٥ وانتهت عام ١٨١٦ كان النصر حليف الأشانتى وأصبحوا أصحاب السلطة العليا على ما يُسمى بغانا الآن، وتحطمت أطماع الفانتى فى إقامة دولة ساحلية لهم وتحولوا إلى ولاية تابعة للأشانتى، واضطر الأوروبيون إلى الاعتراف بسيادة الأشانتى

لكن بريطانيا كانت قد عزمت الأمر على إخضاع الأشانتى واحتلال ساحل الذهب وكانت دائمة الاستشارة للأشانتى، إلا أن الأشانتى كانوا يتحلون بقدر ملحوظ من الصبر والحلم، حتى وقع حادث صغير عام ١٨٢٤ أدى إلى استثارة الاشانتى إذ طلب الحاكم البريطانى (سير تشارلز مكارثى) من رؤساء الأشانتى عزف النشيد القومى البريطانى فى اراضيهم، ولما رفضوا اتخذ مكارثى ذلك ذريعة لمحاربة الأشانتى ولكن الأشانتى هزموا البريطانيين وحلفائهم وقتلوا قائدها الحاكم مكارثى نفسه.

لم يكن انتصار الأشانتى نهاية معركتهم ضد مستعمريهم بل بداية حرب طويلة امتدت إلى عام ١٨٣١ أنهكوا فيها تمامًا وتداعت قوتهم مما اضطرهم إلى توقيع معاهدة مع البريطانيين وافقوا فيها أولًا على إيداع ستمائة أوقية من الذهب وعضوين من الأسرة الحاكمة كضمان، وثانيًا أن يمنح الاستقلال للخارجين عن الأشانتى والفانتى وغيرهم ممن طلبوا الحماية البريطانية، وثالثًا يمتلك البريطانيون بمقتضى حق الفتح الأرض المقامة عليها حصونهم، وبهذا البند أصحبت الأجزاء الجنوبية من ساحل الذهب محمية بريطانية وعزل الأشاتنى عن البحر وأصبحت الذخيرة التى يشترونها تمر بمناطق تخضع للحماية البريطانية، كما أدت هذه المعاهدة إلى وقوع حرب أهلية بين زعماء الأشانتى الذين رفضوا المعاهدة.

فى عام ١٨٦٣ وقعت الحرب الثانية بين الأشانتى والبريطانيين، كان النصر حليف الأشانتى وأُرغم البريطانيون على الانسحاب، وبرغم هذا الانتصار فإن الحكومة البريطانية شعرت بأنه لا مناص من غزو الأشانتى وإظهار قوة بريطانيا، وأرسلت إمدادات عسكرية من بريطانيا وسيراليون والتحموا مع جيش الأشانتى الذى تمرس على حرب الغابات مما أعاق التقدم البريطانى، وقد شهد الرحالة الاستعمارى«ستانلى» الذى كان يرافق الجيش كمراسل

حربى شهادة حق أن الأشانتيين كانوا ذوى تجهيز طيب وأنهم كانوا أكثر من ند للبريطانيين فى مناطق الغابات. ولكن لم يستطع الأشانتى بأسلحتهم الهزيلة ان يصمدوا أمام السلاح البريطانى الجبار فوقعوا معاهدة«فومينا».

دمرت معاهده السلم هذه نسيج النظام الملكى للأشانتى، فقد ثارت المقاطعات وفاض الكيل بالزعماء وقامت حروب أهلية بينهم وكان البريطانيون يمنحون الحماية لكل زعيم يتمرد على الأشانتيين، وأحدث ذلك ردود فعل كبيرة على الأشانتى أدت إلى تفكك مملكة الأشانتى. وقد حرص البريطانيون ألا تقوم قائمة لمملكة الأشانتى فحرضوا الدول الأعضاء فى اتحاد الأشانتى على أن تؤكد استقلالها وعزلت ملك الأشانتى، ونشبت حرب أهلية بشأن من يخلفه لم تنته إلا حينما أصبح«برمبه» الأول ملكًا جديدًا للأشانتى.

أثبت«برمبه» قدرته على التصدى للأزمات التى واجهها، ففى خلال ثلاث سنوات من بدء حكمه استطاع أن يوحد من جديد الدول الأعضاء فى اتحاد الأشانتى، وأقنع المهاجرين من شعب الأشانتى الذين هربوا من الحروب الأهلية إلى الدول المجاورة أقنعهم بالعودة إلى الوطن، فانزعج البريطانيون من يقظة مملكة الأشانتى ومن احتمال طمع الفرنسيين أو الألمان فيها فعرضوا وضعها تحت حمايتهم، ورفض الملك«برمبه» العرض فاقترحت بريطانيا إيفاد بريطانى مقيم دائمًا فى كوماسى مقابل دفع مكافأة سنوية للملك وسائر كبار الملوك التابعين له، ولكنه رفض ذلك أيضًا وأرسل بعثة إلى ملكة بريطانيا ليبلغها تمسكه بادارة مملكته، فما كان من إنجلترا أثناء وجود البعثة فيها إلا أن أرسلت إلى«برمبه» إنذارًا نهائيًا بأن يستقبل المقيم البريطانى ويدفع غرامة الحرب التى كانت فرضت على الأشانتى عام ١٨٧٤، ورفض ملك الأشانتى الاستجابة لهذه المطالب فاتخذت بريطانيا من رفضه ذريعة لشن حملة عسكرية واسعة النطاق ودخلت الحملة العاصمة كوماسى فى يناير ١٨٩٦ دون أن تطلق رصاصة واحدة لأن«برمبه» ومستشاريه كانوا قد قرروا عدم الدخول فى حرب مع بريطانيا وقبول الحماية البريطانية، وقد برر «برمبه» عدم دخول الحرب عندما طلب زعماء القبائل محاربة البريطانيين بقوله «لقد آثرت التسليم حفظًا لأرواح وأمن شعبى وأبناء وطنى». وعلى الرغم من ذلك اعتقل البريطانيون«برمبه» وأمه التى كانت ملكة على البلاد وأعمامه وقادته ونفوهم إلى سيراليون أولًا ثم جزر سيسل[1].

(١) تاريخ إفريقيا العام- المرجع السابق صفحة١٤٣

وشهدت السنوات الأربع ما بين ١٨٩٦ الى ١٩٠٠ محاولات الأشانتى اليائسة لتغيير السياسة البريطانية نحوهم، وفشلت محاولاتهم لإعادة ملكهم«برمبه» وأعضاء الأسرة المالكة الآخرين وإمعانًا فى إذلال الأشانتى فقد أعلن الحاكم العام البريطانى أن ملكة بريطانيا هى سيدة الأشانتى وأن من حقه كممثل للملكة أن يجلس على كرسى العرش الذهبى وهو كرسى مقدس لدى الأشانتى، واصاب هذا الطلب الأشانتى بالذهول، فالكرسى هو رمز قوميتهم. وعند هذا الحد من الاستفزاز البريطانى لم تجد ملكة الأشانتى «ياه اشنتيوا» بُدًّا من إعلان الحرب ضد البريطانيين بدأت فى مارس ١٩٠٠ وانتهت الحرب فى مايو ١٩٠١ وعرفت باسم حرب ياه اشنتيوا. وكانت هذه الحرب الأخيرة بين الأشانتى والبريطانيين، ورغم عدم معرفة الملكة الإفريقية بفنون الحرب والتدريب العسكرى فإن جيشها استطاع أن يحقق فى البداية عددًا من الانتصارات عندما حاصرت قلعة كوماسى التى كانت القوات البريطانية قد سيطرت عليها مما تسبب فى المجاعة والأمراض، وأثبت هذا التكتيك فاعليته بحيث إن البريطانيين تركوا الحامية بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة، وأبدى الأشانتيون مقاومة عنيفة كما لجأوا إلى حرب العصابات حتى نفدت دخيرتهم، وحسمت الإمدادات العسكرية البريطانية الحرب التى انتهت بهزيمة الأشانتى عام ١٩٠١ وأصبحت ساحل الذهب جزءًا من الإمبراطورية البريطانية فى غرب إفريقيا. وكعقاب للملكة «ياه اشنتيوا» فقد نفاها البريطانيون مع عدد من زعماء الأشانتى إلى جزر سيشل لتلقى هناك الملك«برمبه» الاول وسائر رؤساء الأشانتى[1].

فى ٢٦ يونيو ٢٠٠٠ نقل رفاة «ياه اشنتيوا» إلى بلدها غانا وأعيد دفنها فى موكب جليل. جرى الاحتفال فى اليوم الذى وافق مرور ١٠٠ عام على انتقاض «ياه اشنتيوا» ضد البريطانيين، واصدرت غانا عملة وطنية تحمل صورتها.

*****

(١) العبودية فى إفريقيا- المرجع السابق صفحة ١٥٣